موسوعة الأخلاق

الجزء الأول

مقدمات في الأخلاق - الإحسان - الألفة

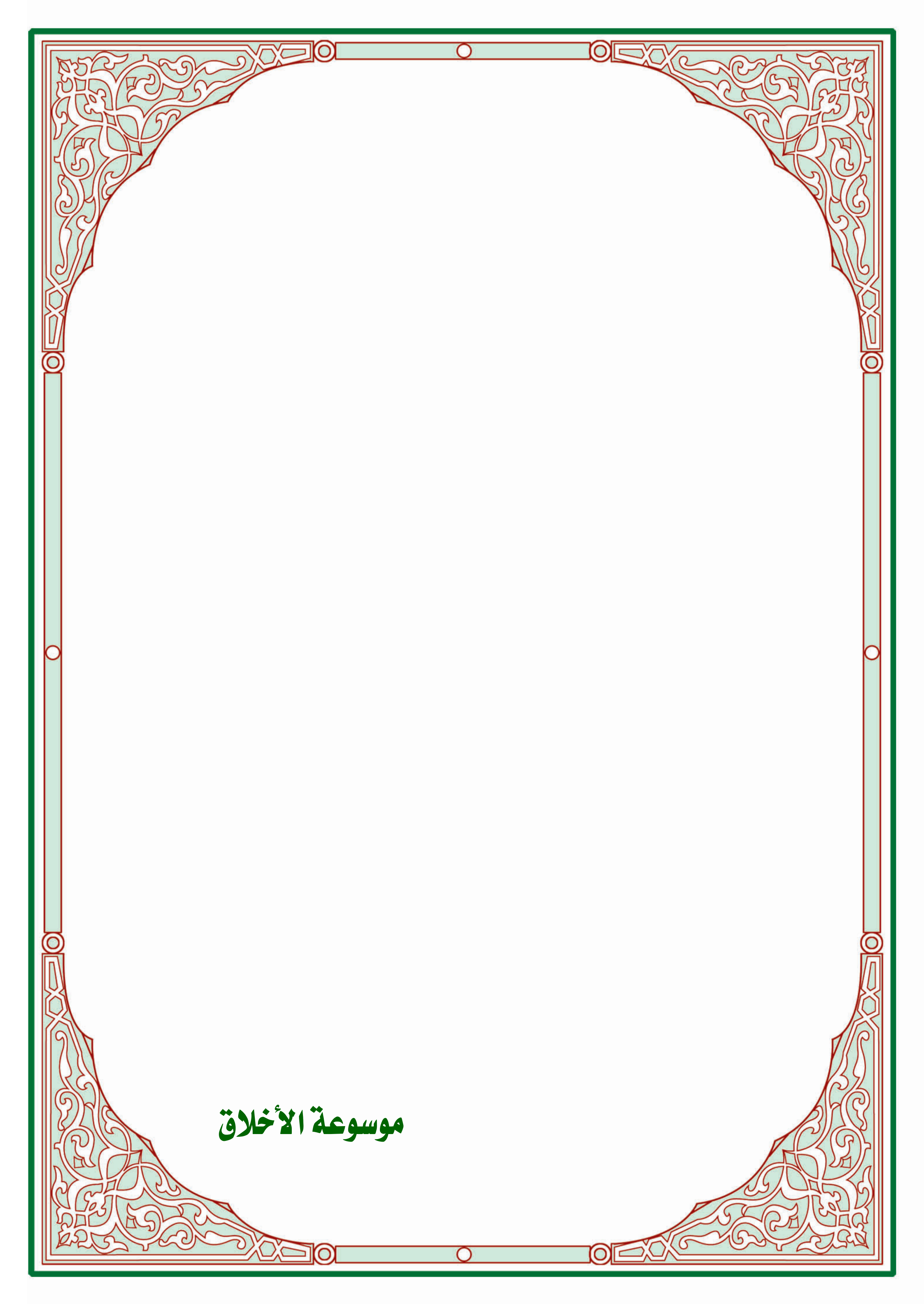
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلوي بن عبد القادر السَّقاف





موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الأول

مقدمات في الأخلاق الإسلامية - الإحسان - الألفة

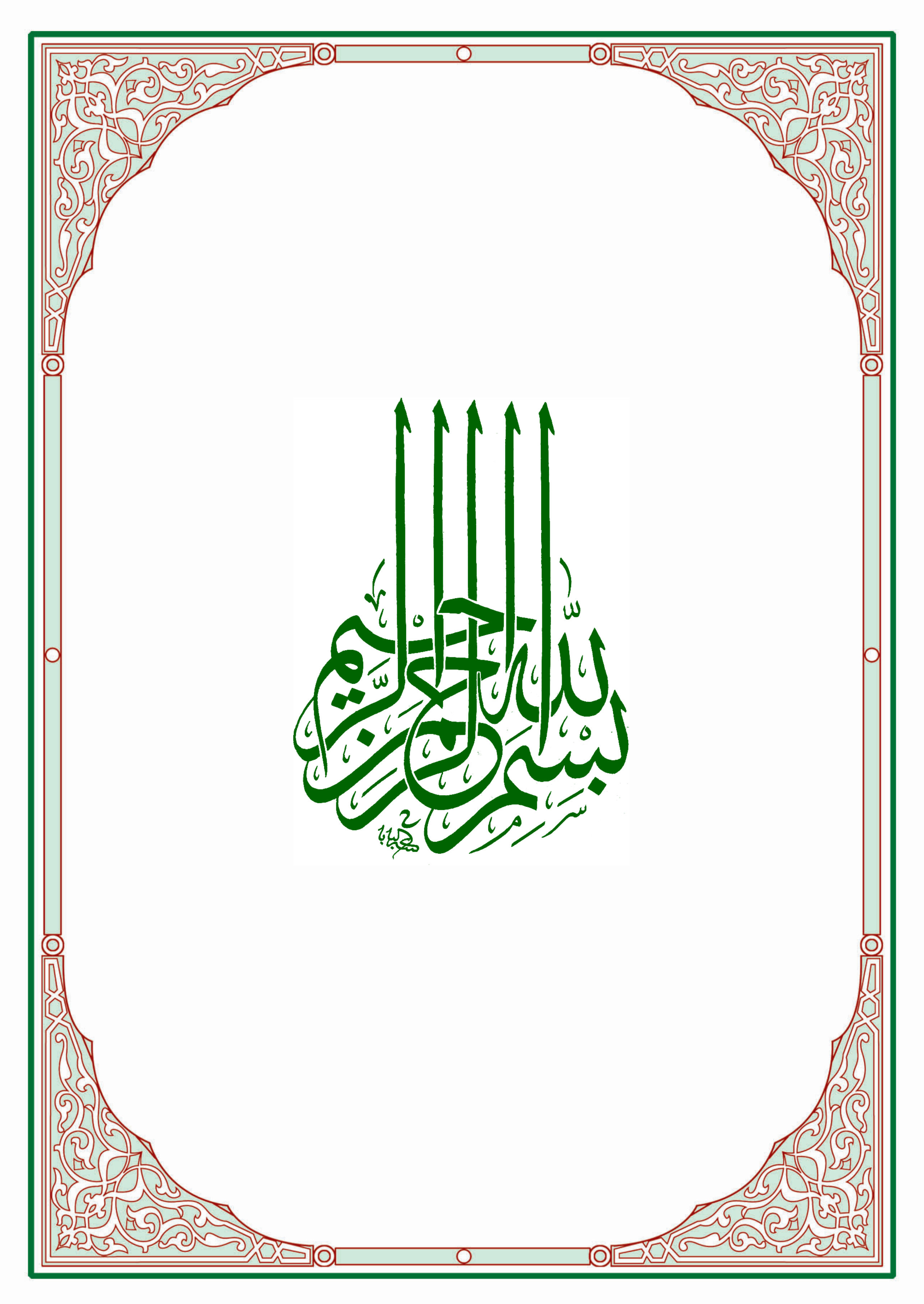
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المشرف

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضْلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد:

فإنَّ خيرَ الحديث كتاب الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلم، وشرَّ الأُمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة.

إنَّ الأمَّة الإسلاميَّة تمرُّ اليوم بأزمة أخلاق لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخها كلِّه، على مستوى المجتمع والأسرة والفرد، وما ذاك إلا بسبب بعدها عن دينها وعن كتاب ربها الذي وصف أفضل خلقه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلَّم بأنه ذو خُلُقٍ عظيم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ولبُعدها عن سُنَّة نبيها القائل فيما رواه البخاري ومسلم: ((إنَّ خياركم أحاسنكم أخلاقًا))، وفي رواية عند البخاري: ((إنَّ من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقًا)).

ومن هذا المنطلق ولما للأخلاق من أهميةٍ في حياة المسلم؛ في سلوكه وتعامله -لا سيما في عصرنا الحاضر- رأت مؤسسة الدرر السنية إصدار موسوعةٍ في الأخلاق، وهي واحدة من مجموعة من الموسوعات العلمية: في العقيدة، والحديث، والفقه، وسائر العلوم الشرعية، ونشر هذه الموسوعة على الموقع الإلكتروني للمؤسسة، ثم طبعها في كتابٍ يستفيد منه عامة الناس.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أشكر الله سبحانه وتعالى، الذي منَّ علينا بإنجاز هذا العمل، كما أشكر كلَّ من ساهم في ذلك، وأخصُّ منهم:

فريق البحث العلمي في المؤسسة، الذي قام بإعداد الموسوعة الإلكترونية، بجمع مادتها وتحريرها، ثم تهيئتها في كتاب مقروء.

كما أشكر الإخوة في قسم النشر والطباعة والتنسيق، الذين لم يألوا جهدًا، ولم يدَّخروا وسعًا لإخراج الكتاب بهذه الصورة.

وأخيرًا لا يفوتني أن أشكر مؤسسة فرحان ابن المبارك لخدمة المجتمع؛ لرعايتها لهذه الموسوعة، كما أشكر كلَّ من ساهم في طباعة هذا الكتاب ورقيًّا، ونشره إلكترونيًّا.

هذا، ونسأل الله تعالى أن يجزي الجميع خيرًا، وأن يعمَّ النفعُ بهذا الكتاب.

والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل

المشرف على إعداد الكتاب
علوي بن عبد القادر السَّقَّاف
saggaf@dorar.net

عملنا في الموسوعة

الحمدُ للهِ الحليمِ العليمِ، والصلاةُ والسلامُ على صاحبِ الخُلُقِ العظيم.

أمَّا بعد:

فقد سار العمل في هذه الموسوعة على النحو التالي:

- انتقاء أهمِّ الصفات المحمودة والمذمومة، وجمع المادَّة العلميَّة المتعلِّقة بها من مصادرَ كثيرةٍ ومتنوِّعة، نيَّفت على سبعمائة مصدر ومرجع.

- محاولة استيعاب الكلام عن كلِّ خلق من عدة جوانب، وذلك بذكر التعريفات اللغوية والاصطلاحية له، والاستشهاد من الكتاب والسنة وأقوال المفسرين وشراح الحديث، مع ذكر أقوال السلف والعلماء، والآثار المترتبة على التخلق به، وصوره، وأقسامه، وأسبابه، ووسائل تحصيله إن كان محمودًا، واجتنابه إن كان مذمومًا، ونماذج عملية من حياة الأنبياء والصحابة وغيرهم، مع فوائد منوَّعة، واختيارات من الأمثال، والحكم، والأشعار.

- عزو الآيات القرآنية، وكتابتها بالرسم العثماني، وتخريج الأحاديث النبوية، والحكم عليها من خلال أحكام المحدثين المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، مع التساهل أحيانًا في إيراد بعض الأحاديث التي فيها مقال؛ لأن المقام مقام ترغيب وترهيب.

- تخريج أقوال الصحابة وغيرهم من السلف دون الحكم عليها.

- ضبط الأشعار، والكلمات المُشكلة، وتفسير الكلمات الغريبة.

- توثيق النقولات والأقوال، وعزوها إلى مصادرها.

- عمل فهارس تفصيلية للموضوعات.

- احتوت الموسوعة على أكثر من مئة خُلُق من الأخلاق المحمودة والمذمومة.

وقد قُسِّمت إلى أربع مجلدات:

المجلدان الأول والثاني في الأخلاق المحمودة، يبدأ المجلد الأول بمقدمات مهمة عن الأخلاق الإسلامية: مفهومها، وفضائلها، وخصائصها، ووسائل تحصيلها، وغير ذلك، ثم بخُلُق الإحسان، وينتهي بخُلُق الشهامة. والمجلد الثاني: يبدأ بخُلُق الصبر، وينتهي بخُلُق الوقار.

وأما المجلدان الثالث والرابع ففي الأخلاق المذمومة، يبدأ الثالث بخُلُق الإساءة، وينتهي بخُلُق سوء الظن. والرابع يبدأ بخُلُق الشماتة، وينتهي بخُلُق اليأس والقنوط.

ونحن بهذا العمل لا ندعي الكمال، فما من عمل بشري إلا ويعتريه النقص والقصور، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونسأل الله أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم، وينفع به المسلمين.

فريق البحث العلمي بمؤسسة الدرر السنية

elmee@dorar.net

مُقَدِّمَات فِي الأَخْلَاق

مقدمات في الأخلاق

معنى الأخلاق لغة واصطلاحًا:

• معنى الأخلاق لغة:

الأخلاق جمع خلق، والخُلُق -بضمِّ اللام وسكونها- هو الدِّين والطبع والسجية والمروءة، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها[1]. وقال الرَّاغب: (والخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد... لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلْق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة)[2].

• معنى الأخلاق اصطلاحًا:

عرَّف الجرجاني الخلق بأنَّه: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا)[3].

وعرفه ابن مسكويه بقوله: (الخلق: حال للنفس، داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت

---

(١) ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص ٨٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٨٦).

(٢) ((مفردات ألفاظ القرآن الكريم)) للراغب الأصفهاني (ص ٢٩٧).

(٣) ((التعريفات)) للجرجاني (ص ١٠١).

يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمُّ ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالرويَّة والفكر، ثم يستمر أولًا فأولًا، حتى يصير ملكة وخلقًا)[١].

وقد عرف بعض الباحثين الأخلاق في نظر الإسلام بأنها عبارة عن (مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي، لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه)[٢].

تعريف علم الأخلاق وموضوعه:

• تعريف علم الأخلاق:

عُرِّف علم الأخلاق بعدة تعريفات منها:

١- هو (علم: موضوعه أحكام قيمية تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن أو القبح)[٣].

٢-وقيل هو: (علم: يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضًا، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصد إليها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لما ينبغي)[٤].

---

(١) ((تهذيب الأخلاق)) لابن مسكويه (ص ٤١).

(٢) ((التربية الأخلاقية الإسلامية)) لمقداد يالجين (ص ٧٥) كما في ((نضرة النعيم)) لمجموعة باحثين (ص ٢٢).

(٣) ((المعجم الوسيط)) لمجموعة مؤلفين (١/٢٥٢).

(٤) ((كتاب الأخلاق)) لأحمد أمين (ص ٨).

موضوع الأخلاق:

(هو كلُّ ما يتصل بعمل المسلم ونشاطه، وما يتعلق بعلاقته بربه، وعلاقته مع نفسه، وعلاقته مع غيره من بني جنسه، وما يحيط به من حيوان وجماد)[(١)].

أهميَّة الأخلاق:

أولًا: الأخلاق الحسنة امتثال لأمر الله ورسوله

تضافرت النصوص من كتاب الله عز وجل على الأمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة، ونصت على الكثير منها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وكذلك نهت عن الأخلاق المذمومة ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٢٢).

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتثل أمر الله تعالى في كلِّ شأنه قولًا وعملًا، ويأتمر بكلِّ أخلاق حسنة ورد الأمر بها في القرآن، وينتهي عن كلِّ أخلاق سيئة ورد النهي عنها في القرآن؛ لذا كان خلقه القرآن. وأيضًا فإن الالتزام بالأخلاق الحسنة امتثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فهو الذي يأمر بها ويحض عليها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن))[1].

ثانيًا: الأخلاق الحسنة أحد مقومات شخصية المسلم

فـ(الإنسان جسد وروح، ظاهر وباطن، والأخلاق الإسلامية تمثل صورة الإنسان الباطنة، والتي محلُّها القلب، وهذه الصورة الباطنة هي قوام شخصية الإنسان المسلم، فالإنسان لا يقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقول صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[2] ويقول صلى الله عليه وسلم أيضًا: ((لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجُعَل[3] الذي يُدَهْدِه[4] الخِراء

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/١٥٣) (٢١٣٩٢). قال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/٢٧٧).

(٤) يدهده: يدحرج ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/١٤٣).

بأنفه، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة[١] الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب)) [٢][٣].

ثالثًا: الارتباط الوثيق بين الأخلاق والدين الإسلامي عقيدة وشريعة

إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة وثيق جدًّا، لذا فكثيرًا ما يربط الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح، الذي تعدُّ الأخلاق الحسنة أحد أركانه، فالعقيدة دون خُلُق، شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، أما عن ارتباط الأخلاق بالشريعة، فإن الشريعة منها عبادات، ومنها معاملات، والعبادات تثمر الأخلاق الحسنة ولا بد، إذا ما أقامها المسلم على الوجه الأكمل، لذا قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأما صلة الأخلاق بالمعاملات، فإنَّ المعاملات كلَّها قائمة على الأخلاق الحسنة في أقوال المسلم وأفعاله، والمتأمل لتعاليم الإسلام يرى هذا واضحا جليًّا.

رابعًا: آثارها في سلوك الفرد والمجتمع

(تظهر أهمية الأخلاقية الإسلامية لما لها من أثر في سلوك الفرد، وفي سلوك المجتمع.

أما أثرها في سلوك الفرد فلما تزرعه في نفس صاحبها من الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعفة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع.. وغير ذلك من القيم والأخلاق السامية، فالأخلاق بالنسبة للفرد

---

(١) عبية: يعني الكبر ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١٦٩/٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٩٥٥) واللفظ له، وأحمد (٣٦١/٢) (٨٧٢١). وحسنه الترمذي، وحسن إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤٤٩٦)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٤٨٢).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد المرسي (ص ٢٤).

هي أساس الفلاح والنجاح، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، ويقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، والتزكية في مدلولها ومعناها: تعني: تهذيب النفس باطنًا وظاهرًا، في حركاته وسكناته[١].

وأما أثرها في سلوك المجتمع كلِّه، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلامية كانت أو غير إسلامية، يقرر ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

فالعمل الصالح المدعم بالتواصي بالحقِّ، والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والتحديات من شأنه أن يبني مجتمعًا محصنًا لا تنال منه عوامل التردي والانحطاط، وليس ابتلاء الأمم والحضارات كامنًا في ضعف إمكاناتها المادية أو منجزاتها العلميَّة، إنما في قيمتها الخلقية التي تسودها وتتحلى بها)[٢].

خامسًا: مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية

(إن أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة.

ولو فرضنا احتمالًا أنه قام مجتمع من المجتمعات على أساس تبادل المنافع المادية فقط، من غير أن يكون وراء ذلك غرض أسمى؛ فإنَّه لابد لسلامة هذا المجتمع من خلقي الثقة والأمانة على أقل التقادير.

فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات،

---

(١) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص ١٥).

(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد المرسي (ص ٢٦).

ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار.

من الممكن أن تتخيل مجتمعًا من المجتمعات انعدمت فيه مكارم الأخلاق كيف يكون هذا المجتمع؟!

كيف تكون الثقة بالعلوم، والمعارف، والأخبار، وضمان الحقوق لولا فضيلة الصدق؟!

كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟

كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي، والتعاون، والمحبة، والإيثار؟

كيف تكون جماعة مؤهلة لبناء مجد عظيم لولا فضيلة الشَّجَاعَة في ردِّ عدوان المعتدين وظلم الظالمين، ولولا فضائل العدل والرحمة والإحسان والدفع بالتي هي أحسن؟!

كيف يكون الإنسان مؤهلًا لارتقاء مراتب الكمال الإنساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه، صارفة له عن كلِّ عطاء وتضحية وإيثار؟

لقد دلَّت التجربات الإنسانية، والأحداث التاريخية، أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأنَّ انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائمًا، صاعدين وهابطين.

وذلك لأنَّ الأخلاق الفاضلة في أفراد الأمم والشعوب تمثل المعاقد الثابتة التي تعقد بها الروابط الاجتماعية، ومتى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكانًا تنعقد عليه، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة المنحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فقط، لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت القوى المبعثرة فيها بأسًا فيما بينها، مضافًا إلى قوة عدوها.

وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم، فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل الأربطة التي تشدُّ المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي)[1].

سادسًا: أهميَّة الأخلاق في الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ

(الذي يظنُّ أنَّ الناس يدخلون في الدين فقط؛ لأنهم يقتنعون عقليًّا فقط، لا شك أنه مخطئ... وكثير من الناس يدخلون في الدين؛ لأنهم يرون أنَّ أهل هذا الدين على خلق، وأن الدعاة إلى الله عندهم أخلاق، والشواهد في هذا الباب كثيرة... فالاستقامة على الأخلاق لها أثر كبير، ونفعها بليغ، ولا أدلَّ على ذلك مما جاء في السيرة النبوية من أنَّ أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم كانت محل إعجاب المشركين قبل البعثة، حتى شهدوا له بالصدق والأمانة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))[2].

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨)، واللفظ له.

وقد بدأ انعكاس الصور السلوكية الرائعة في تأثيرها في انتشار هذا الدين في بعض المناطق التي لم يصلها الفتح؛ إذ دخل في هذا الدين الحنيف شعوب بكاملها لما رأوا القدوة الحسنة مرتسمة خلقًا حميدًا في أشخاص مسلمين صالحين، مارسوا سلوكهم الرشيد، فكانوا كحامل مصباح ينير طريقه لنفسه بمصباحه، فيرى الآخرون ذلك النور ويرون به، وليس أجمل منه في قلب الظلام، وبناء على ذلك الإقبال سريعًا دون دافع سوى القدوة الحسنة، فَرُبَّ صفة واحدة مما يأمر بها الدين تترجم حية على يد مسلم صالح يكون لها أثر لا يمكن مقارنته بنتائج الوعظ المباشر؛ لأن النفوس قد تنفر من الكلام الذي تتصور أنَّ للناطق به مصلحة، وأحسن من تلك الصفات التمسك بالأخلاق الحميدة التي هي أول ما يرى من الإنسان المسلم، ومن خلالها يحكم له أو عليه...)[1].

سابعًا: أهمية الأخلاق في إضفاء السعادة على الأفراد والمجتمعات

لا شك أنَّ السعادة كلَّ السعادة في الإيمان بالله والعمل الصالح، وعلى قدر امتثال المسلم لتعاليم الإسلام في سلوكه وأخلاقه تكون سعادته، فـ(التزام قواعد الأخلاق الإسلامية كفيل بتحقيق أكبر نسبة من... السعادة للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانية، ثم لسائر الشركاء في الحياة على هذه الأرض وذلك بطريقة بارعة جدًّا؛ يتم فيها التوفيق بالنسب المستطاعة بين حاجات ومطالب الفرد من جهة، وحاجات ومطالب الجماعة من جهة أخرى، ويتم فيها إعطاء كل ذي حق حقه، أو قسطًا من حقه وفق نسبة عادلة اقتضاها التوزيع العام المحفوف بالحق والعدل.

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٣٩) (بتصرف).

فمن الواضح في هذا العنصر أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب رذائلها، ولم تهمل ابتغاء سعادة الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها.

وروعة الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام، تظهر فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر فيما تحققه من وحدات السعادة الجزئية في ظروف الحياة الدنيا، بقدر ما تسمح به سنن الكون الدائمة الثابتة، التي تشمل جميع العاملين، مؤمنين بالله أو كافرين، أخلصوا له النية أو لم يخلصوا)[١].

فضائل الأخلاق الحسنة:

١- الأخلاق الحسنة من أسباب دخول الجنة:

قال صلى الله عليه وسلم: ((أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه))[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج))[٣].

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن الميداني (١/٨٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، والطبراني في ((الكبير)) (٨/٩٨)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٠/٤٢٠) (٢١١٧٦). وصححه النووي في ((رياض الصالحين)) (ص ٢١٦)، وحسنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٦٤٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وأحمد (٢/٤٤٢) (٩٦٩٤)، وابن حبان (٢/٢٢٤). قال الترمذي: صحيح غريب. وحسنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٦٤٢).

٢- الأخلاق الحسنة سبب في محبة الله لعبده:

وقد ذكر الله تعالى محبته لمن يتخلق بالأخلاق الحسنة، والتي منها الصبر والإحسان والعدل وغير ذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال أيضًا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا))[١].

٣- الأخلاق الحسنة من أسباب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا))[٢].

٤- مكارم الأخلاق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة:

قال صلى الله عليه وسلم: ((ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق))[٣].

٥- الأخلاق الحسنة تضاعف الأجر والثواب:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار))[٤].

---

(١) رواه الحاكم (٤/٤٤١)، والطبراني في ((الكبير)) (١/١٨١). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/٢٧): رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٦/٩): رواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وحسَّن إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧٩١).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٢)، وابن حبان (١٢/٥٠٦). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦٢٨).

(٤) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/١٨٧) (٢٥٥٨٧)، والحاكم (١/١٢٨). وقال: صحيح =

وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله عزَّ وجلَّ لكرم ضريبته[١] وحسن خلقه))[٢].

٦- الأخلاق الحسنة من خير أعمال العباد:

قال صلى الله عليه وسلم: ((يا أبا ذرٍّ، ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فو الذي نفس محمد بيده، ما عمل الخلائق بمثلهما))[٣].

٧- الأخلاق الحسنة تزيد في الأعمار وتُعَمِّر الديار:

قال صلى الله عليه وسلم:((حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار))[٤].

٨- الأخلاق الحسنة علامة على كمال الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم))[٥].

= على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٢٠).

(١) لكرم ضريبته: طبيعته وسجيته. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/٨٠).

(٢) رواه أحمد (٢/١٧٧) (٦٦٤٨)، والطبراني في ((الكبير)) (١٣/٥٨). قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤٠٠٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورواة أحمد ثقات إلا ابن لهيعة. وقال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/٢٥): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه البزار (١٣/٣٥٩)، وأبو يعلى (٦/٥٣)، والطبراني في ((الأوسط)) (٧/١٤٠). وجوَّد إسناده المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣/٢٧٤)، وقال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/٢٢): رجاله ثقات. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٦/١٨): هذا إسناد رجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد (٦/١٥٩) (٢٥٢٩٨)، وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥١٩).

(٥) رواه الترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/٢٥٠) (٧٣٩٦). قال الترمذي: حسن صحيح. =

وفي حديث عمرو بن عبسة أنَّه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: ((حسن الخلق))[(١)].

مصادر الأخلاق الإسلامية:

يمكن أن نجمل مصادر الأخلاق الإسلامية في مصدرين رئيسين، هما أعظم ما تُستمدُّ منه هذه الأخلاق؛ كتاب الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم الصحيحة:

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للأخلاق، والآيات التي تضمنَّت الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن مساوئها كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] إلى غير ذلك.

ويدلنا على أصالة هذا المصدر أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وصفه الله عز وجل بالخلق العظيم تصفه عائشة رضي الله عنها بقولها: ((كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن))[(٢)]. ومعنى ذلك كما يقول ابن

= وصححه الحاكم (٤٣/١)، قال الهيثمي في ((المجمع)) (٣٠٦/٤): رواه أحمد، وفيه محمد ابن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) رواه أحمد (٣٨٥/٤) (١٩٤٥٤)، والخرائطي في ((مكارم الأخلاق)) (ص ٣٠). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٥٧/١): في إسناده شهر بن حوشب، وقد وثق على ضعف فيه.

(٢) رواه مسلم (٧٤٦).

كثير: (أنَّه قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خلقًا له وسجية، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين)[1].

والمصدر الثاني السنة النبوية: والمراد من السنة ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال، وتقريرات، وتعتبر السنة النبوية الصحيحة هي المصدر الثاني للأخلاق، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))[2]. قال إبراهيم الحربي: (ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمسك به)[3]. (ولذا حرص الصحابة رضوان الله عليهم واهتموا اهتمامًا كبيرًا، وتخلقوا بالأخلاق الحسنة مستندين في ذلك إلى ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهم قدوتنا وسلفنا الصالح في الأخلاق)[4].

---

(١) ((الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم)) لابن كثير (ص ٢٦٤).

(٢) رواه أحمد (٢/٣٨١) (٨٩٣٩)، والحاكم (٢/٦٧٠)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٣). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٩١): رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٧/٦٩): صحيح على شرط مسلم.

(٣) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/١٤٢).

(٤) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٣١).

أقسام الأخلاق:

أولًا: أقسام الأخلاق باعتبارها فطرية أو مكتسبة

الأخلاق تنقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين: أخلاق فطرية، وأخلاق مكتسبة.

فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ بداية نشأتهم، والبعض الآخر من أخلاقهم مكتسب من البيئة، ومن تتابع الخبرات والتجارب وكثرتها ونحو ذلك. والأخلاق الفطرية قابلة للتنمية والتوجيه والتعديل؛ لأنَّ وجود الأخلاق الفطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميتها بالتدريب والتعليم وتكرر الخبرات، والاستعداد الفطري لتقويمها وتعديلها وتهذيبها.

(إننا نجد مثلًا الخوف الفطري عند بعض الناس أشدَّ منه عند فريق آخر، ونجد الطمع الفطري عند بعض الناس أشد منه عند فريق آخر، ونجد فريقًا من الناس مفطورًا على سرعة الغضب، بينما نجد فريقًا آخر مفطورًا على نسبة ما من الحلم والأناة وبطء الغضب، ونجد حبَّ التملك الفطري عند بعض الناس أقوى منه عند بعض آخر.

هذه المتفاوتات نلاحظها حتى في الأطفال الصغار الذين لم تؤثر البيئة في تكوينهم النفسي بعد.

وقد جاء في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يثبت هذا التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها:

منها: قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي: ((إنَّ بني آدم خلقوا على طبقات شتى، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء[1]،

---

(١) سريع الفيء: سريع الرجوع ((لسان العرب)) لابن منظور (١/١٢٥).

والسريع الغضب سريع الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء))[١].

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا))[٢].

ومنها: ما رواه أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب))[٣].

وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((الناس معادن)) دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقًا، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه في كل أحواله. فإذا نظرنا إلى مجموعة من الناس غير متعلمة ولا مهذبة، أو في وسط مجتمع جاهلي، فإنَّه لابد أن يمتاز في نظرنا من بينهم

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩١)، وأحمد (٣/١٩) (١١١٥٩). وحسَّنه الترمذي، وضعفه الألباني في ((ضعيف الجامع)) (١٢٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٦٣٨) واللفظ له.

(٣) رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وأحمد (٤/٤٠٠) (١٩٥٩٧). قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٧٥٩).

أحاسنهم أخلاقًا، فهم خيرهم معدنًا، وأفضلهم سلوكًا اجتماعيًا، ثم إذا نقلنا هذه المجموعة كلها فعلمناها وهذبناها وأنقذناها من جاهليتها، ثم نظرنا إليها بعد ذلك نظرة عامَّة لنرى من هو أفضلهم، فلابد أن يمتاز في نظرنا من بينهم من كان قد امتاز سابقًا، لأنَّ العلم والتهذيب والإيمان تمدُّ من كان ذا خلق حسن في أصل فطرته، فتزيده حسن خلق واستقامة سلوك وتزيده فضلًا، ثم إذا جاء الفقه في الدين كان ارتقاء هؤلاء فيما فضلوا به ارتقاء يجعلهم هم السابقين على من سواهم لا محالة، وبذلك تكون فروق النسبة لصالحهم فضلًا وكرمًا.

ومنها: ما رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم))[١].)[٢].

ثانيًا: أقسام الأخلاق باعتبار علاقاتها

تنقسم الأخلاق باعتبار علاقاتها إلى أربعة أقسام:

(**القسم الأول**: ما يتعلق بوجوه الصلة القائمة بين الإنسان وخالقه... والفضيلة الخلقية في حدود هذا القسم تفرض على الإنسان أنواعًا كثيرة من السلوك الأخلاقي: منها الإيمان به؛ لأنَّه حق، ومنها الاعتراف له بكمال

---

(١) رواه أحمد (٣٨٧/١) (٣٦٧٢)، والحاكم (٨٨/١). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٥٦/١): رواه أحمد، ورجال إسناده بعضهم مستور، وأكثرهم ثقات. وضعفه الألباني في ((ضعيف الجامع)) (١٦٢٥)، ورواه موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٥)، والطبراني (٢٠٣/٩) (٨٩٩٠)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١٦٥/٤).
وثق رواته المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٣٥٧/٢) وقال: وليس في أصله رفعه، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٩٣/١٠): رواه الطبراني موقوفًا ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (٢٧٥) وقال: في حكم المرفوع.
(٢) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حسن حبنكة (١٦٧/١).

الصفات، والأفعال، ومنها تصديقه فيما يخبرنا به؛ لأنَّ من حق الصادق تصديقه، ومنها التسليم التام لما يحكم علينا به؛ لأنَّه هو صاحب الحق في أن يحكم علينا بما يشاء.

فكل هذه الأنواع من السلوك أمور تدعو إليها الفضيلة الخلقية.

أما دواعي الكفر بالخالق بعد وضوح الأدلة على وجوده فهي حتمًا دواع تستند إلى مجموعة من رذائل الأخلاق، منها الكبر، ومنها ابتغاء الخروج على طاعة من تجب طاعته، استجابة لأهواء الأنفس وشهواتها، ومنها نكران الجميل وجحود الحق...

القسم الثاني: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان وبين الناس الآخرين.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم معروفة وظاهرة: منها الصدق، والأمانة، والعفة، والعدل، والإحسان، والعفو، وحسن المعاشرة، وأداء الواجب، والاعتراف لذي الحق بحقه، والاعتراف لذي المزية بمزيته والمواساة والمعونة، والجود، وهكذا إلى آخر جدول فضائل الأخلاق التي يتعدى نفعها إلى الآخرين من الناس.

أما صور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم فهي أيضًا معروفة وظاهرة: منها الكذب، والخيانة، والظلم، والعدوان، والشح، وسوء المعاشرة، وعدم أداء الواجب، ونكران الجميل، وعدم الاعتراف لذي الحق بحقِّه، وهكذا إلى آخر جدول رذائل الأخلاق التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من الناس.

القسم الثالث: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان ونفسه.

وصور السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم كثيرة: منها الصبر على المصائب، ومنها الأناة في الأمور، ومنها النظام والإتقان في العمل، ومنها عدم استعجال الأمور قبل أوانها، وكلُّ ذلك يدخل في حسن إدارة الإنسان لنفسه، وحكمته في تصريف الأمور المتعلقة بذاته.

وصور السلوك الأخلاقي الذميم في حدود هذا القسم تأتي على نقيض صور السلوك الأخلاقي الحميد.

القسم الرابع: ما يتعلق بوجوه الصلة بين الإنسان والأحياء غير العاقلة.

ويكفي أن تتصور من السلوك الأخلاقي الحميد في حدود هذا القسم، الرحمة بها، والرفق في معاملتها، وتأدية حقوقها الواجبة. أما الظلم والقسوة وحرمانها من حقوقها؛ فهي من قبائح الأخلاق، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر: ((عُذِّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[١]))[٢]...

ولابد من ملاحظة أنَّ كثيرًا من الأخلاق لها عدد من الارتباطات والتعلقات، ولذلك فقد تدخل في عدد من هذه الأقسام في وقت واحد، إذ قد تكون لفائدة الإنسان نفسه، وتكون في نفس الوقت لفائدة الآخرين، وتكون مع ذلك محققة مرضاة الله تعالى)[٣].

---

(١) خشاش الأرض: هوامها وحشراتها ((شرح النووي على مسلم)) (٦/٢٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) اللفظ للبخاري.

(٣) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٥٢) (بتصرف).

خصائص الأخلاق الإسلامية[١]:

أولًا: الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر

الأخلاق الإسلامية مصدرها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا مدخل فيها للآراء البشرية، أو النظم الوضعية، أو الأفكار الفلسفية.

ولذا اتسمت الأخلاق الإسلامية بسمة الخلود والصدق والصحة.

ثانيًا: الشمول والتكامل

من خصائص الأخلاق الإسلامية: أنها شاملة، ومتكاملة، وهي خاصية منبثقة من الخاصية الأولى، وهي الربانية، وذلك لأنها تراعي الإنسان، والمجتمع الذي يعيش فيه، وأهداف حياته طبقا للتصور الإسلامي، تحدد أهداف الحياة وغايتها وما وراءها، وتشمل كافة مناشط الإنسان وتوجهاته، وتستوعب حياته كلها من جميع جوانبها، ثم هي أيضًا لا تقف عند حدِّ الحياة الدنيا.

ثالثًا: الأخلاق الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان

لما كانت الأخلاق الإسلامية ربانية المصدر، كانت صالحة لجميع الناس في كلِّ زمان، وفي أيِّ مكان، نظرًا لما تتميز به من خصائص، فلا يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان؛ لأنها ليست نتاجًا بشريًّا، بل هي وحي من الله تعالى لنبيه.

رابعًا: الإقناع العقلي والوجداني

تشريعات الإسلام توافق العقول الصحيحة، وتتوائم مع الفطر السليمة، وتحصل القناعة الكاملة والانسجام التام مع ما أتت به الشريعة الإسلامية من نظم أخلاقية.

---

(١) انظر: ((الأخلاق الإسلامية)) لحسن السعيد المرسي (٥٣-٦٢)، ((نضرة النعيم)) (١/٨١).

فالأخلاق الإسلامية بها يقنع العقل السليم، ويرضى بها القلب، فيجد الإنسان ارتياحًا واطمئنانًا تجاه الحسن من الأخلاق، ويجد نفرة وقلقًا تجاه السيئ من الأخلاق.

خامسًا: المسؤولية

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسؤولًا عما يصدر منه في كلِّ جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسؤولية مسؤولية شخصية، أم مسؤولية جماعية، ولا تجعله اتكاليًّا لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء.

ونعني بالمسؤولية الشخصية: أن الإنسان مسؤول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر، وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء: ١١١].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا مدى المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدره منه عنه نفسه. ويقول صلى الله عليه وسلم: ((... وإنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم))[1]، يقول ابن حجر في شرح الحديث: (لا يلقي لها بالًا: أي: لا يتأمل بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظنُّ أنَّها تؤثر شيئًا)[2]، فقبل أن تخرج الكلمة من فيك،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٢) ((فتح الباري)) (١١/٣١١).

أعط نفسك فرصة للتفكير، هل ما ستقوله يرضي الله أم يغضبه؟ هل تكون عاقبته خيرًا أم شرًّا؟ وطالما لم تخرج فأنت مالكها، فإذا خرجت كنت أسيرها، وإذا كان هذا في الكلام ففي سائر التصرفات من باب أولى.

ونعني بالمسؤولية العامة (الجماعية): تلك المسؤولية التي تراعي الصالح العام للناس، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلًا... أو سلبيًّا بل عليه أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان))[1].

سادسًا: العبرة بالظاهر والباطن من الأعمال معًا

أخلاقنا الإسلامية لا تكتفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتدُّ الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذًا بالنية، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[2]، ... والنية هي مدار التكليف، وعلى ذلك فالإسلام يراعي نية الإنسان في الحكم على عمله الظاهر.

سابعًا: الرقابة الدينية

الرقابة: تعني مراقبة المسلم لجانب مولاه سبحانه في جميع أمور الحياة.

وعلى هذا فإنَّ الرقابة في أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقلُّ والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى، حيث تكون رقابة خارجية من الغير تتمثل في رقابة السلطة، والأفراد.

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) رواه البخاري (١).

أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية في المقام الأول، وهي رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومن إيقاظ الضمير، فإذا كان المسلم يعلم أنَّ الله معه، وأنَّه مطلع على حركاته وسكناته، فإنَّه يكون رقيبًا على نفسه، ولا يحتاج إلى رقابة الغير عليه، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، فإذا قرأ المسلم هذه الآيات، وعرف معناها فإنَّه حينئذ يتيقن أنَّه إذا تمكن من الإفلات من رقابة السلطة، فإنَّه لن يتمكن من الإفلات من رقابة الله، وهذا في حدِّ ذاته أكبر ضمان لعدم الانحراف والانسياق إلى الأخلاق المذمومة.

ثامنًا: الأخلاق الإسلامية ترتبط بالجزاء الدنيوي والأخروي

أخلاق الإسلام ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة، لذا وُجد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

فالأخيار من الناس: جزاؤهم عظيم في الدنيا والآخرة: ومن ذلك ما أعده الله لهم في الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وكذلك ما وعدهم الله به في الدنيا من الجزاء العاجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣]، وقال أيضًا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وأما الأشرار من الناس فقد توعدهم الله عزَّ وجلَّ كما في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وأما جزاؤهم في الدنيا فمثاله قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

اكتساب الأخلاق:

(لدينا حقيقة ثابتة لابد من ملاحظتها في مجال كلِّ تكليف رباني: هي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته، فليس عليه مسؤولية نحوه، يضاف إلى ذلك أنَّ نسبة المسؤولية تتناسب طردًا وعكسًا مع مقدار الاستطاعة...

فما كان من الطباع الفطرية قابلًا للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته، كان خاضعًا للمسؤولية، وداخلًا في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلًا للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية.

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كلِّ إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍّ ما من الفضائل الأخلاقية؛ لما كلفه الله ذلك.

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍّ ما من كلِّ فضيلة خلقية بعيدًا

عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه... ما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسؤوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إنَّ أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

وإن أشد الناس بخلًا وأنانية وحبًّا للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسؤول عن اكتساب القدر الواجب شرعًا منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره.

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من خلق الشَّجاعَة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشَّجاعَة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعًا، وضمن الحدود التي هو مسؤول فيها.

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي.

والناس من بعد ذلك يتفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل.

وتفاوت الاستعدادات والطبائع، لا ينافي وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار ما من أي فرع من فروع الاختصاص، سواء أكان ذلك من قبيل العلوم، أو من قبيل الفنون، أو من قبيل المهارات، أو من قبيل الأخلاق.

وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلًّا منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة، زائدة على نسبة الاستعداد العام.

ولو أنَّ بعض الناس كان محرومًا من أدنى حدود الاستعداد العام الذي هو مناط التكليف، فإنَّ التكليف لا يتوجه إليه أصلًا، ومن سلب منه هذا الاستعداد بسبب ما ارتفع عنه التكليف، ضرورة اقتران التكليف بالاستطاعة، كما أوضحت ذلك نصوص الشريعة الإسلامية.

ووفق هذا الأساس، جاءت التكاليف الشرعية بالتزام فضائل الأخلاق واجتناب رذائلها.

ووفق هذا الأساس، وضع الإسلام الخطط التربوية التي تنفع في التربية على الأخلاق الفاضلة، فالاستعداد لذلك موجود في الواقع الإنساني، وإن اختلفت نسبة هذا الاستعداد من شخص إلى آخر. وفي الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته)[1].

وسائل اكتساب الأخلاق:

١- تصحيح العقيدة:

إن العقيدة تنعكس ولا بد على أخلاق معتقدها، فالطريق لتصحيح الأخلاق هو تصحيح العقيدة (فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين، والانحراف في السلوك ناتج عن خلل في المعتقد، فالعقيدة هي السنة، وهي الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول، ويلحق بها مما هو من أصول الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا؛ فإذا صحت العقيدة، حسنت الأخلاق تبعًا لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة (عقيدة السلف) عقيدة أهل السنة والجماعة التي تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق، وتردعه عن مساوئها.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين أحسنهم خلقًا،

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حسن حبنكة (١٧٩/١) (بتصرف).

وخياركم خياركم لنسائهم))[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وإنَّ حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة))[2].)[3].

٢- العبادات:

إنَّ (العبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركانًا في الإيمان به ليست طقوسًا مبهمة في النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة، وحركات لا معنى لها، كلا، كلا، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكًا بهذه الأخلاق، مهما تغيرت أمامه الحياة.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة، يكشفان -بوضوح- عن هذه الحقائق.

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالابتعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة...

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي -أولًا- غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/٢٥٠) (٧٣٩٦). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه الحاكم (١/٤٣)، قال الهيثمي في ((المجمع)) (٤/٣٠٦): رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه البزار (١٤/٣١)، وأبو يعلى (٧/١٨٤). قال الهيثمي في ((المجمع)) (١/٦١): رجاله ثقات. وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٦/١٩): إسناده رواته ثقات.

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٥٨).

وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فتنظيف النفس من أدران النقص، والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى.

وكذلك شرع الإسلام الصوم، فلم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائمًا من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة.

وإقرارًا لهذا المعنى قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((من لم يدع قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))[1].

وقد يحسب الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة – الذي كلف به المستطيع واعتبر من فرائض الإسلام على بعض أتباعه – يحسب الإنسان هذا السفر رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، ومثلًا لما قد تحتويه الأديان أحيانًا من تعبدات غيبية. وهذا خطأ، إذ يقول الله تعالى -في الحديث عن هذه الشعيرة-: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الحج: ١٩٧].)[2].

٣- الارتباط بالقرآن الكريم:

لا شك أن القرآن كتاب هداية ومنهج حياة، ولا شك أن الارتباط به

(١) رواه البخاري (١٩٠٣).

(٢) ((خلق المسلم)) لمحمد الغزالي (ص ٩).

قراءة وتدبرًا وعملًا من أعظم الوسائل لتحقيق الهداية والحياة الكريمة والأخلاق الفاضلة قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

قال ابن كثير: (﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أي: محصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقون الموقنين)[١].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

قال السعدي: (يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم)[٢].

وقال الشنقيطي: (هذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدي إلى خير طريق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على

---

(١) ((تفسير ابن كثير)) (٤/٢١٠).

(٢) ((تفسير الكريم المنان)) (ص ٧٠٨).

وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة)[١].

وكم في هذا الكتاب العظيم من توجيه وهداية، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فالقرآن الكريم اشتمل على الأمثال والقصص والعبر هداية لخيري الدنيا والآخرة.

أ- الأمثال القرآنية:

الأمثال القرآنية من أفضل الوسائل لغرس القيم الإسلامية وتهذيب النفوس والأفكار، وتغيير السلوك والاعتبار، ومن خلالها يعيد المرء ترتيب نفسه بالتفكير والإمعان، والعمل على إصلاح النفس وتربيتها.

ب- القصص القرآني:

للقصص القرآني أثر بالغ في نفس القارئ والسامع، تهفو لها النفوس، وتطمئنُّ بها القلوب، وتسمو بها الأرواح، فيها من السحر الأخَّاذ للسمع والفؤاد، وفيها من الفوائد والعبر والدروس والإرشاد والدلالات لمن أمعن النظر، وألقى السمع وهو شهيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٢-٣])[٢].

٤- التدريب العملي والرياضة النفسية:

(إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية ولو مع التكلف في أول الأمر،

---

(١) ((أضواء البيان)) (٣/٤٠٩).

(٢) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (١٣٣-١١٦).

وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر.

والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمرًا محببًا، وحين تتمكن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقًا مكتسبًا، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمرًا موجودًا.

وقد عرفنا أنَّ في النفس الإنسانية استعدادًا فطريًّا لاكتساب مقدار ما من كلِّ فضيلة خلقية، وبمقدار ما لدى الإنسان من هذا الاستعداد تكون مسؤوليته، ولو لم يكن لدى النفوس الإنسانية هذا الاستعداد لكان من العبث اتخاذ أية محاولة لتقويم أخلاق الناس. والقواعد التربوية المستمدة من الواقع التجريبي تثبت وجود هذا الاستعداد، واعتمادًا عليه يعمل المربون على تهذيب أخلاق الأجيال التي يشرفون على تربيتها، وقد ورد في الأثر: (العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم).

وثبت أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله))[1].

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده:

((ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر)).

(١) رواه البخاري (٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣)، واللفظ له.

وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلًا دلَّ فيه على أنَّ التدريب العملي ولو مع التكلف يكسب العادة الخلقية، حتى يصير الإنسان معطاء غير بخيل، ولو لم يكن كذلك أول الأمر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنتان[١] من حديد من ثديهما إلى تراقيهما[٢]، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع))[٣].

فدلَّ هذا الحديث على أن المنفق والبخيل كانا في أول الأمر متساويين في مقدار الدرعين.

أما المنافق فقد ربت درعه بالإنفاق حتى غطت جسمه كلِّه، بخلاف البخيل الذي لم يدرب نفسه على الإنفاق، فإن نفسه تكز، والله يضيق عليه من وراء ذلك، فيكون البخل خلقًا متمكنًا من نفسه مسيطرًا عليها.

ومن ذلك نفهم أمرين: فطرية الخلق، وقابليته للتعديل بالممارسة والتدريب العملي، إنَّ المنفق كان أول الأمر كالبخيل يشبهان لابسي درعين من حديد متساويين ويبدو أن الدرع مثال لما يضغط على الصدر عند إرادة النفقة، فمن يتدرب على البذل تنفتح نفسه كما يتسع الدرع فلا يكون له ضغط، وأما من

(١) جنتان من حديد: أي درعان. انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠٨/٧).

(٢) تراقيهما: التراقي جمع ترقوة، والترقوتان هما العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق. انظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٣٠٨/٨).

(٣) رواه البخاري (١٤٤٣).

يعتاد الإمساك فيشتد ضاغط البخل على صدره، فهو يحس بالضيق الشديد كلما أراد البذل، ومع مرور الزمن يتصلب هذا الضاغط.

واعتمادًا على وجود الاستعداد الفطري لاكتساب الخلق، وردت الأوامر الدينية بفضائل الأخلاق، ووردت النواهي الدينية عن رذائل الأخلاق.

ولكن من الملاحظ أنه قد يبدأ التخلق بخلق ما عملًا شاقًّا على النفس، إذا لم يكن في أصل طبيعتها الفطرية، ولكنه بتدريب النفس عليه، وبالتمرس والمران، يصبح سجية ثابتة، يندفع الإنسان إلى ممارسة ظواهرها اندفاعًا ذاتيًّا، دون أن يجد أية مشقة أو معارضة أو عقبة من داخل نفسه، ولئن وجد شيئًا من ذلك فإنَّ دافع الخلق المكتسب يظلُّ هو الدافع الأغلب، بشرط أن يكون التخلق قد تحول فعلًا إلى خلق مكتسب.

وليس التدريب النفسي ببعيد الشبه عن التدريب الجسدي، الذي يكتسب به المهارات العملية الجسدية)[١].

٥- التفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق:

(على المرء أن يستذكر دائمًا ويحتسب ثواب حسن الخلق.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البِرِّ والإثم؟ فقال: ((البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس))[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/١٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣).

((أثقل شيء في الميزان حسن الخلق))[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وإنَّ حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة)).

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: ((صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار، يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار))[2].[3].

٦- النظر في عواقب سوء الخلق:

(وذلك بتأمل ما يجلبه سوء الخلق من الأسف الدائم، والهمِّ الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق؛ فذلك يدعو المرء إلى أن يقصر عن مساوئ الأخلاق، وينبعث إلى محاسنها.

قال ابن القيم: (ومن عقوباتها [أي المعاصي وسوء الأخلاق] سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإنَّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبقَ له جاه عند الخلق، وهان عليهم عاملوه، على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر، ساقط القدر، زري الحال، لا حرمة له، فلا فرح له، ولا سرور، فإنَّ خمول الذكر وسقوط القدر والجاه، يجلب كلَّ غمٍّ وهمٍّ وحزن، ولا سرور

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٢)، وابن حبان (١٢/٥٠٦). قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٦٢٨).

(٢) رواه أحمد (٦/١٥٩) (٢٥٢٩٨). وصحح إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٥١٩).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٦٩).

معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية. ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي له قدره)[(١)].

...وليس هذا فحسب، بل تأمل ما يقول ابن القيم أيضًا: (ومن عقوباتها: أنَّها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضي ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والسارق، والكاذب، والخائن، والغادر وأمثالها)[(٢)].

وتأمل عاقبة هذه المرأة التي كانت تصوم النهار وتقوم الليل، ولكنها سيئة الخلق في معاملتها مع جيرانها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ((إنَّ فلانة تقوم الليل وتصوم النَّهار، وتفعل وتصَّدَّق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير فيها، هي من أهل النار. قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة وتَصَّدَّق بأثوار (قطع من الأقط، وهو لبن جامد) ولا تؤذي أحدًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي من أهل الجنة))[(٣)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا، وإنَّ

---

(١) ((الجواب الكافي)) (ص ١٢٦).

(٢) ((المصدر السابق)).

(٣) رواه أحمد (٢/٤٤٠) (٩٦٧٣)، وابن حبان (١٣/٧٦)، والحاكم (٤/١٨٤). قال الهيثمي في ((المجمع)) (٨/١٧٢): رجاله ثقات. وصحح إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٥/٤٩٠).

من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون[١]))[٢].

٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق:

(القرآن الكريم يوصي ويفرض ضرورة التذكير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والصبر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإنَّ التذكير والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والتواصي من أساليب التربية الإسلامية التي بدت خلال أحاديث المربي الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي طريقة التواصي دعوة كل مسلم إلى أن يكون مربيًا يعلم أخاه المسلم، والتذكير بالخير والحق، والدعوة إليهما، والتنبيه إلى الشر والضرر والنهي عنهما، هو من صميم الأساليب التربوية الإسلامية لتنمية القيم والأخلاق الإسلامية في نفس المسلم، وفي الحديث الشريف أن أبا ذر لما بلغه مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: ((رأيته يأمر بمكارم الأخلاق))[٣].)[٤].

٨- علو الهمة:

(قال صاحب المنازل:

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وحسن إسناده الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧٩١).

(٢) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٠).

(٣) رواه مسلم (٢٤٧٤).

(٤) ((نضرة النعيم)) (١/١٤٠).

الهمة: ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا، ولا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها.

والمراد: أنَّ همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا، فتلك هي الهمة العالية التي لا يتمالك صاحبها، أي لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة: سريع وصوله وظفره بمطلوبه، ما لم تعقه العوائق، وتقطعه العلائق، والله أعلم. اهـ.

قلت: فعلو الهمة يستلزم الجد، والترفع عن الدنايا، ومحقرات الأمور.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفسافها))[1].

وسفسافها: أي حقيرها ورديئها، وشرف النفس أن يصونها عن الدنايا، والهمة العالية لا تزال بصاحبها تزجره عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل، حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض، إلى أعلى مقامات المجد، والسؤدد.

قال ابن القيم في ((الفوائد)): فمن علت همته، وخشعت نفسه؛ اتصف بكلِّ خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه؛ اتصف بكلِّ خلق رذيل.

وقال أيضًا: فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضلها،

---

(١) رواه الطبراني (٦/١٨١) (٥٩٢٨)، والحاكم (١/١١٢) واللفظ له، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/٢٥٥)، والبيهقي (١٠/١٩١) (٢١٣٠٠). قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٢/٤٣٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/١٩١): رجاله ثقات، وصحح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٣٧٨).

وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفوس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك.

فإذا حرص المرء على اكتساب الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، نال مكارم الأخلاق)[١].

٩- الصبر:

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشَّجَاعَة، والعدل)[٢].

وقال: (وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: صبر الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأنَّ صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق.

الثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية. صابرًا نفسه معها، سائرًا بسيرها.. أين ما توجهت ركائبها)[٣].

وقال الماوردي: (وليس لمن قلَّ صبره على طاعة الله تعالى حظ من برٍّ، ولا

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٢).
(٢) ((مدارج السالكين)) (٢/٢٩٤).
(٣) ((المصدر السابق)) (٢/١٥٦).

نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبرًا، يكسبها ثوابًا، ويدفع عنها عقابًا، كان مع سوء الاختيار بعيدًا من الرشاد، حقيقًا بالضلال)[١].

(وعلى العاقل احتساب الأجر عند الله عزَّ وجلَّ، فهذا الأمر من أعظم ما يعين على اكتساب الأخلاق الفاضلة، وتحمل أذى الناس؛ فإذا أيقن المسلم أنَّ الله سيجزيه على حسن خلقه ومجاهدته؛ سيهون عليه ما يلقاه في ذلك السبيل؛ قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢])[٢].

١٠- الموعظة والنصح:

(التربية بالوعظ، لها دورها الهام في غرس القيم الإسلامية بميادينها المختلفة، وهي قد تكون في صورة مباشرة على شكل نصائح، فالإنسان قد يصغي ويرغب في سماع النصح من محبيه وناصحيه، فالنصح والوعظ يصبح في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب)[٣].

والقرآن الكريم زاخر بالمواعظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [النساء: ٥٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل))[٤].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ٤٥٤).

(٢) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٦).

(٣) ((نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي)) لمحمد فاضل الجمالي (ص ١١١).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/٣٣٤) (٨٣٩٨) واللَّفظ له، =

والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة؛ مما يؤثر في تغيير سلوك الفرد وإكسابه الصفات المرغوب فيها، وكمال الخلق: عن ابن عباس قال: ((أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال، فظنَّ أنَّه لم يُسمع، فوعظهنَّ وأمرهنَّ بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم))(١).

وفي المواعظ القرآنية نلحظ أسلوبًا تربويًّا رائعًا: يبغي كمال الإنسان، بحيث يجب أن يتمثلها المعلم والمتعلم، إذ هي صادرة عن حكمة، وليس عن هوى والمثال على ذلك نأخذ خلاصة من عظة لقمان لابنه، التي تهدف إلى:

أ- أن يكون الله هو مصدر السلوك، بمعنى إيمان الإنسان به، واتباع شريعته، وذلك هو محدد سلوك الإنسان، وهو الهدف والغاية لسلوكه، بمعنى أن يكون مخلصًا لله، وذلك عن طريق عدم الإشراك بالله، والشكر له.

ب- أن يكون السلوك كما حددته الموعظة، في قصد واعتدال في كلِّ شيء فلا مغالاة ولا تفريط، إنما توسط واعتدال، وهذا يعكس هدف التربية الإسلامية السلوكية: إنَّها تنشئ إنسانًا معتدلًا في سلوكه وفي عقيدته.

وهكذا يبدو دور الوعظ كوسيلة في التربية الإسلامية، تصلح في ميدان التربية الخلقية، كما هي في ميدان التربية الاجتماعية والعقلية وباقي الميادين الإسلامية(٢).

= والحاكم (٤/١٨٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧/٥٥) (٩٤٣٦). قال التِّرمذي، والبغوي في ((شرح السنة)) (٦/٤٧٠): حسن غريب. وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧)، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).

(١) انظر ما رواه البخاري (٩٨)، ومسلم (٨٨٤).

(٢) ((نضرة النعيم)) (١/١٤٢).

١١- التواصي بحسن الخلق:

(وذلك ببثِّ فضائل حسن الخلق، وبالتحذير من مساوئ الأخلاق، وبنصح المبتلين بسوء الخلق، وبتشجيع حسني الأخلاق، فحسن الخلق من الحقِّ، والله سبحانه يقول: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وكان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١]، ثم يسلم أحدهما على الآخر[١].

وفي الأثر فائدة التواصي بالحقِّ والصبر؛ باستذكار قراءة سورة العصر.

والربح الحقيقي للمسلم أن يكون له ناصحون ينصحونه، ويوصونه بالخير والاستقامة، فإذا حسنت أخلاق المسلم، كثر مصافوه، وأحبه الناس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه))[٢].

قال المناوي: فأنت مرآة أخيك يبصر حاله فيك، وهو مرآة لك تبصر حالك فيه.

قال الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته   كم صالح بفساد آخر يفسد

---

(١) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥/٢١٥) (٥١٢٤). من حديث أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة، وصحح إسناده الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٦٤٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٣٩)، والبزار (١٤/٣٨٥). قال العجلوني في ((كشف الخفاء)) (٢/٣٠٤): في إسناده كثير بن زيد، مختلف في عدالته. وحسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٦٥٦).

عدوى البليد إلى الجليد سريعة كالجمر يوضع في الرماد فيخمد[١]

١٢- أن يتخذ الناس مرآة لنفسه:

إنَّ العاقل ينبغي أن ينظر لغيره، ويجعلهم مرآة لنفسه، فكلُّ ما كرهه ونفر عنه من قول، أو فعل، أو خلق - فليتجنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه، فليفعله.

قال ابن حزم:

(لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سببًا إلى تواليف عظيمة المنفعة، ولولا استثارهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف)[٢].

(قال الشاعر:

إنَّ السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وقال الطاهر بن الحسين:

إذا أعجبتك خصال امرئ فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك)[٣]

١٣- القدوة الحسنة:

(تعني القدوة هنا أن يكون المربي أو الداعي مثالًا يحتذى به في أفعاله وتصرفاته، وقد أشاد القرآن الكريم بهذه الوسيلة فقال عزَّ من قائل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقد كان المصطفى

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٧٧).

(٢) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص ١٢٨).

(٣) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ٥٦١) بتصرف.

صلى الله عليه وسلم -ولا يزال- قدوة للمسلمين جميعًا، والقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام بكلِّ ما يحمله من مبادئ وقيم تدعو إلى الخير وتحث على الفضيلة.

ولأثر القدوة في عملية التربية، وخاصة في مجال الاتجاهات والقيم، كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو قدوة المسلمين طبقًا لما نص عليه القرآن الكريم، وقد استطاع بفضل تلك القدوة أن يحمل معاصريه قيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه، لا بالأقوال فقط، وإنما بالسلوك الواقعي الحي، وقد حرصوا على تتبع صفاته وحركاته، ورصدها والعمل بها، وما ذلك إلا حرصًا منهم على تمثل أفعاله صلى الله عليه وسلم، لقد كان المثل الأعلى لهم.

وقد تمثلت في الرسول صلى الله عليه وسلم صفات جليلة جعلت منه قدوة بالفعل)[1].

(والقدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالًا حسيًّا مشاهدًا ملموسًا يقتدي به، وقد يكون مثالًا حاضرًا في الذهن بأخباره، وسيره، وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير، وقصص، وأنباء من أقوال أو أفعال.

والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية ممتازة... ووجه القرآن الكريم بصراحة تامة إلى القدوة الحسنة، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) ((نضرة النعيم)) (١/١٤٣).

ففي هذا النص إرشاد عظيم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لهم، يقتدون به، في أعماله، وأقواله، وأخلاقه، وكلِّ جزئيات سلوكه في الحياة، فهو خير قدوة يقتدي بها الأفراد العاديون، والأفراد الطامحون لبلوغ الكمال الإنساني في السلوك.

وجعل الله الذين آمنوا معه، وصدقوا، وأخلصوا، واستقاموا –أمثلة رائعة يقتدى بها في معظم الفضائل الفردية والاجتماعية.

ولئن انتقل الرسول صلوات الله عليه إلى جوار ربه، فإنَّ سيرته التي تحتوي على جزئيات سلوكه ماثلة لنا.

وفيما بلغنا من تراجم أصحابه رضوان الله عليهم ما يكفي لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ثم إنَّ كلَّ عصر من العصور من بعدهم لا يخلو من وجود طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تصلح لأن تكون قدوة حسنة، قَلَّت هذه الطائفة أو كثرت، فقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال))[١].

وروى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة))[٢].

وروى البخاري ومسلم عن معاوية قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم

(١) رواه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (٤/٤٣٧) (١٩٩٣٤)، والحاكم (٢/٨١). وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٢٩٤).
(٢) رواه مسلم (١٥٦).

يقول: ((لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك))[١].

فلا يخلو عصر من عصور الأمة المحمدية من طائفة صالحة، تصلح لأن تكون في عصرها قدوة حسنة للأفراد[٢].

١٤- مصاحبة الأخيار، وأهل الأخلاق الفاضلة[٣]:

فالمرء مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

ومجالستهم تكسب المرء الصلاح والتقوى، والاستنكاف عنهم تنكب عن الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل الجليس الصالح والجليس السوء؛ كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك: إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد: يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثة))[٤].

قال أبو حاتم: (العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأنَّ مودة الأخيار سريع اتصالها، بطيء انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها،

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له.

(٢) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢٠٣/١).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨٠).

(٤) رواه البخاري (٢١٠١).

بطيء اتصالها، وصحبة الأشرار سوء الظن بالأخيار، ومن خادن الأشرار، لم يسلم من الدخول في جملتهم، فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الريب؛ لئلا يكون مريبًا، فكما أنَّ صحبة الأخيار تورث الخير، كذلك صحبة الأشرار تورث الشر)[١].

قال الشاعر:

عليك بإخوان الثقات فإنهم قليل فَصِلْهم دون من كنت تصحب

ونفسك أكرمها وصنها فإنها متى ما تجالس سفلة الناس تغضب

فالصداقة المتينة، والصحبة الصالحة، لا تحلُّ في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة. فإذا كان الأمر كذلك، فما أحرى بذلك اللب أن يبحث عن إخوان ثقات؛ حتى يعينوه على كلِّ خير، ويقصروه عن كلِّ شرٍّ.

قال ابن الجوزي: (ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح، فإنَّ الطبع يسرق؛ فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله)[٢].

قال الناظم:

أنت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلا

فاصحب الأخيار تعلو وتنل ذكرًا جميلا

قال العلماء: إنما سمي الصديق صديقًا لصدقه، والعدو عدوًّا لعدوه عليك.

١٥- الغمس في البيئات الصالحة:

(ومن وسائل اكتساب الأخلاق الفاضلة الغمس في البيئات الصالحة، وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يكتسب من البيئة التي ينغمس فيها ويتعايش

---

(١) ((روضة العقلاء)) (ص ٨٠).

(٢) ((صيد الخاطر)) (ص ٤٢٥).

معها، ما لديها من أخلاق وعادات وتقاليد وأنواع سلوك، عن طريق السراية والمحاكاة والتقليد، وبذلك تتم العدوى النافعة أو الضارة، وفي الحكم السائرة: أن الطبع للطبع يسرق...

ويمكن تلخيص التأثير الجماعي على الفرد بالعناصر التالية:

- السراية التي تفعل فعلها العميق في كيان الإنسان، وهي من خصائص الاجتماع، وكلما كبر المجتمع كان تأثيره على الفرد الذي ينخرط فيه أكثر.

- القوة المعنوية الجماعية، التي يخشى الأفراد عقوباتها المادية والمعنوية، ويرجون مثوباتها المادية والمعنوية.

- جاذبية الجماعة لعنصر التقليد والمحاكاة الذي يوجد عند الأفراد.

- عنصر المنافسة، وهو من خصائص الجماعة.

- رغبة الأفراد بتقدير الآخرين ومحبتهم له، وهذا الدافع لا يتحرك إلا في وسط الجماعة، فاستغلاله من خصائص الجماعة.

هذا وقوة الجماعة الخيرة يوجد نظيرها في الجماعة الشريرة الخبيثة، يضاف إليها ميل النفس بفطرتها إلى الأهواء والشهوات التي ترافق رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال، لا سيما إذا كان مخالط الأشرار غرًّا صغيرًا غير مضرس في الحياة، وسلطان الغرائز والأهواء فيه أقوى من سلطان العقل والوجدان والضمير)[1].

١٦- الاختلاف إلى أهل الحلم والفضل وذوي المروءات:

(فإذا اختلف المرء إلى هؤلاء، وأكثر من لقائهم وزيارتهم؛ تخلق بأخلاقهم، وقبس من سمتهم ونورهم.

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٠٣).

أ- يُروى أنَّ الأحنف بن قيس قال: (كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم، كما نتعلم الفقه.

ب- كان أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرحلون إليه، فينظرون إلى سمته، وهديه، ودله، قال: فيتشبهون به[(١)].

ج- قال مالك: قال ابن سيرين: كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم. قال: وبعث ابن سيرين رجلًا فنظر كيف هدي القاسم- هو ابن محمد ابن أبي بكر الصديق- وحاله[(٢)].

د- قال القاضي أبو يعلى: روى أبو الحسين بن المنادي بسنده إلى الحسين ابن إسماعيل قال: سمعت أبي يقول: كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء على خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حسن الأدب، وحسن السمت[(٣)].

هـ- قال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد لابنه: يا بني، إيت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك من كثير من الحديث[(٤)].

و- وقال الأعمش: كانوا يأتون همام بن الحارث يتعلمون من هديه وسمته)[(٥)].

١٧- الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع الإسلامي:

(ضمن مجموعة الوسائل التي اعتمد عليها الإسلام في تقويم الأفراد

---

(١) ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلام (٣/٣٨٣).
(٢) ((الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)) للخطيب البغدادي (١/٧٩).
(٣) ((شرح منتهى الإرادات)) للبهوتي (١/٩).
(٤) ((الجامع)) للخطيب (١/٨٠).
(٥) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨١).

وإصلاحهم، وإلزامهم بكمال السلوك وفضائل الأخلاق، اعتمد على المجتمع الإسلامي السوي، وذلك لما للمجتمع من سلطة معنوية فعالة ومؤثرة على نفوس الأفراد.

وترجع هذه السلطة المعنوية إلى أنَّ الفرد جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، وله من مجتمعه مصالح كثيرة مادية ونفسية.

وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، ولا يستطيع أن يعيش عيشًا سويًّا سليمًا إلا ضمن مجتمع من الناس، كان ارتباطه بالمجتمع نابعًا من حاجته إليه، والحاجة لشيء ذي إرادة تجعل لهذا الشيء سلطانًا على من كان بحاجة إليه، إذ هو لا يحقق هذه الحاجة من نفسه ما لم يكن راضيًا، عندئذ يسعى ذو الحاجة إلى تحقيق رضاه حتى ينال منه حاجته.

ومن الحاجات النفسية المرتبطة بالمجتمع حاجة الإنسان إلى التقدير، ولذلك يكدح كثير من الكادحين؛ ليظفروا بتقدير الناس لهم وثنائهم عليهم، ويمنع كثير من الناس أنفسهم من شهوات ملحة، وأهواء يتطلعون إليها، مخافة أن ينظر الناس إليهم بازدراء واحتقار، أو مخافة أن يعاقبوهم بالهجر والقطيعة، أو بالتلويم والتثريب والمذمة، وما ذلك إلا من شعور الفرد بحاجته إلى التقدير، وبحاجته إلى المحافظة على كرامة نفسه بين الناس، وهذا هو الذي يجعل للمجتمع سلطانًا على أفراده.

يضاف إلى ذلك أسباب التأثير الجماعي على الفرد،... وإذ اتخذ الإسلام -ضمن وسائله لإلزام الأفراد بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه للناس- وسيلة الضغط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع الإسلامي، فقد عمل بالتربية الفردية النبوية، وبالتربية الجماعية على تكوين المجتمع الإسلامي الأول، ثم جعل من هذا

المجتمع رقيبًا على أفراده، وحارسًا ساهرًا، ومحاسبًا عادلًا، ومعاقبًا بأنواع شتى من أنواع العقاب المعنوي، ومؤنبًا، وناصحًا، وآمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر.

فمن شأن هذا المجتمع أن يملي على من ينشأ فيه، أو ينخرط فيه، فضائل الأخلاق، ومحاسن السلوك، بصفة عملية فعَّالة...)[1].

١٨- إدامة النظر في السيرة النبوية:

(فالسيرة النبوية تضع بين يدي قارئها أعظم صورة عرفتها الإنسانية، وأكمل هدي وخلق في حياة البشرية.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن حزم: من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق -كلها- واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليستعمل أخلاقه، وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به، بمنه، آمين[2].

وبدراسة السيرة النبوية يتم حسن الاقتداء به صلى الله عليه وسلم...

ومعرفة شمائله، فإنها تنبه الإنسان على مكارم الأخلاق، وتذكره بفضلها، وتعينه على اكتسابها، والشمائل: جمع شمال، وهي السجايا والأخلاق التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم)[3].

١٩- النظر في سير الصحابة الكرام، وأهل الفضل والحلم:

(السلف الصالح أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين ورثوا عن

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٠٥).

(٢) ((الأخلاق والسير)) لابن حزم (ص ٩١).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨٧).

رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه، وسمته، وخلقه، فالنظر في سيرهم، والاطلاع على أحوالهم يبعث على التأسي بهم، والاقتداء بهديهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إن الإحاطة بتراجم أعيان الأمة مطلوبة، ولذوي المعارف محبوبة، ففي مدارسة أخبارهم شفاء للعليل، وفي مطالعة أيامهم إرواء للغليل.

فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟! وأي خطة رشد لم يستولوا عليها؟! تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زلالًا، وأيدوا قواعد الإسلام، فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالًا[1].

واعلم تحقيقًا أنَّ أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق الصحابة، فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال علي رضي الله عنه: خيرنا أتبعنا لهذا الدين[2].

قال الناظم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إنَّ التشبه بالكرام فلاح

وكذلك قراءة سير التابعين ومن جاء بعدهم في تراجمهم مما يحرك العزيمة على اكتساب المعالي ومكارم الأخلاق؛ ذلك أنَّ حياة أولئك تتمثل أمام القارئ، وتوحي إليه بالاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

وجدير بمن لازم العلماء بالفعل أو العلم أن يتصف بما اتصفوا به، وهكذا من أمعن النظر في سيرتهم أفاد منهم وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأول

---

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥).

(٢) ((الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد)) للإمام بدر الدين الغزي العامري (ص ١٣٨).

ذلك ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يرد منه، كائنًا ما كان، وعلى أي وجه صدر... وإنما ذلك بكثرة الملازمة، وشدة المثابرة... وصار مثل ذلك أصلًا لمن بعدهم؛ فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ففقهوا، ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية، والأخلاق العلية)[١].

٢٠- سلطان الدولة الإسلامية:

(للسلطة المادية التي تمارسها الدولة الإسلامية، أثر فعال في إلزام الأفراد والجماعات، بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه الإسلام للناس، وفي تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية.

ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية ضبط انتظام الأفراد والجماعات في نظام الأخلاق الإسلامية، بما توليه من رقابة يقظة، وحراسة ساهرة، ومحاسبة للمنحرفين، وتشجيع للسابقين، وتوجيه وتربية، وبناء وصيانة.

ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية وضع الأنظمة المختلفة، المرغبة بالتزام المنهج الأخلاقي الرباني، والرادعة عن مخالفته، واتخاذ مختلف الوسائل النافعة التوجيهية والتربوية لحماية الأخلاق وصيانتها.

وربما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم، وقد جاء في الأثر: (إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[٢].)[٣].

---

(١) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٨٨).

(٢) أي يكُف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان ما لا يكفه مخافة القرآن ومخافة الله تعالى. انظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/١٨٠).

(٣) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٢٠٨).

موقف أعداء المسلمين من الأخلاق الإسلامية:

(أدرك أعداء المسلمين الحقائق عن مكارم الأخلاق، فعملوا على إفساد أخلاق المسلمين بكلِّ ما أوتوا من مكر ودهاء، وبكلِّ ما أوتوا من وسائل مادية وشياطين إغواء، ليبعثروا قواهم المتماسكة بالأخلاق الإسلامية العظيمة، وليفتتوا وحدتهم التي كانت مثل الجبل الراسخ الصلب قوة، ومثل الجنة الوارفة المثمرة خضرة وبهاء وثمرًا وماء.

إن أعداء المسلمين قد عرفوا أن الأخلاق الإسلامية في أفراد المسلمين تمثل معاقد القوة، فجندوا لغزو هذه المعاقد وكسرها جيوش الفساد والفتنة.

ولقد كان غزوهم للأخلاق الإسلامية من عدة جبهات:

١- لقد عرفوا أن النبع الأساسي الذي يزود الإنسان المسلم بالأخلاق الإسلامية العظيمة، إنما هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فصمموا على أن يكسروا مجاري هذا النبع العظيم، ويسدوا عيونه، ويقطعوا شرايينه.

٢- وعرفوا أن تفهم مصادر الشريعة الإسلامية تفهمًا سليمًا هو الذي يمدُّ نبع الإيمان بما يتطلبه من معارف، فمكروا بالعلوم الإسلامية، وبالدراسات المتعلقة بها مكرًا بالغًا، وذلك ما بين حجب لها تارة، وتلاعب بمفاهيمها أخرى، وتشويه لها أو جحود ومضايقة لروادها ومبلغيها، كلُّ ذلك في حرب مستمرة لا تعرف كللًا ولا مللًا.

٣- وعرفوا قيمة الإفساد العملي التطبيقي، فوجهوا جنودهم لغمس أبناء المسلمين في بيئات مشحونة بالانحلال الخلقي، بغية إصابتهم بالرذائل الخلقية عن طريق العدوى، وسراية الفساد بقوة تأثير البيئة، واستمراء الشهوات المرتبطة برذائل الأخلاق.

٤- وعرفوا قيمة إفساد المفاهيم والأفكار، فجندوا جيوش المضللين الفكريين، الذين يحملون إلى أبناء المسلمين الأفكار والمفاهيم والفلسفات الباطلة، ضمن واردات المعارف المادية الصحيحة، ذات المنجزات الحضارية المدهشة، وعن طريق هذا الغزو الفكري الخطير يدخلون السم في الدسم.

من أقوال أعداء الإسلام والمسلمين:

١- جاء في خطاب... (صموئيل زويمر) رئيس إرسالية التبشير في البحرين منذ أوائل القرن العشرين الميلادي، الذي خطبه في مؤتمر القدس التبشيري، الذي انعقد برئاسته سنة (١٩٥٣م) ما يلي:

... ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلاة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعًا كل التهنئة...!!

٢- وجاء في نشرة المشرق الأعظم الماسوني الفرنسي لسنة (١٩٢٣م) ما يلي:

... وبغية التفريق بين الفرد وأسرته عليكم أن تنتزعوا الأخلاق من أسسها، لأن النفوس تميل إلى قطع روابط الأسرة والاقتراب من الأمور المحرمة، لأنها تفضل الثرثرة في المقاهي على القيام بتبعات الأسرة...

٣- وجاء في البروتوكول الثاني من المقررات اليهودية السرية ما يلي:

... إن الطبقات المتعلمة ستختال زهوًا أمام أنفسها بعلمها، وستأخذ جزافًا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلاؤنا، رغبة في تربية عقولهم حسب الاتجاه الذي توخيناه.

ولا تتصوروا أن كلماتنا جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح (داروِن) و(ماركس) و(نيتشه) والأثر غير الأخلاقي لاتجاه هذه العلوم في الفكر الأممي -أي عند غير اليهود- سيكون واضحًا لنا على التأكيد!!

٤- وجاء في البيان الشيوعي الذي أصدره معلم الشيوعية الأول اليهودي (كارل ماركس) ورفيقه (انجلز) ما يلي:

إن القوانين والقواعد الأخلاقية والأديان أوهام بورجوازية تتستر خلفها مصالح بورجوازية!!)[1].

(أما طريقة دهاة التضليل لهدم الأبنية الأخلاقية فهي تتلخص بما يلي:

١- أن يقنعوا الأجيال بأن الأخلاق نسبية اعتبارية لا ثبات لها، وليس لها حقائق ثابتة في ذاتها، فهي خاضعة للتبدل والتغير.

٢- أن يستغلوا بخبث بعض النظريات الفلسفية التي من شأنها تقليل قيمة الأخلاق في نفوس الناس، إذ تقيمها على أسس واهنة ضعيفة، أو على شفا جرف هار!! ومتى قامت في نفوس الناس على مثل ذلك تداعت الأبنية الأخلاقية التقليدية، ثم انهارت، وحلت محلها أنانيات فوضوية، تعتمد على القوة والحيلة، والإباحية المطلقة لكلِّ شيء مستطاع، فلا خير إلا ما تدعمه

---

(١) ((الأخلاق الإسلامية)) لعبد الرحمن الميداني (١/٣٢).

القوة، ولا شر إلا ما تضعف القوة عن تحقيقه.

٣- أن يلفقوا من عند أنفسهم نظريات فلسفية يخدعون بها الناس، لاسيما الناشئون منهم، ويستغلون فيهم رغبات المراهقة بالتمرد على الحقِّ والواجب، تطلعًا لمجد موهوم، وقد تطول فترة المراهقة عند بعض الناشئين، حتى تكتسح عمر الشباب منهم، وجزءًا من عمر الكهولة، وسبب ذلك الاستسلام التام لعواطف طور المراهقة، ووجود المغذيات الشيطانية الخبيثة، وضعف التربية الإسلامية أو انعدامها. ومتى وجدت هذه الظروف المواتية لنمو الشر، فليس من البعيد أن يصير الإنسان شيخًا في سنه وجسمه ويبقى مراهقًا في عقله ونفسه.

٤- اتخاذ الوسائل العملية التطبيقية لإفساد أخلاق الأمم، وأهمها الغمس في بيئات موبوءة بالأخلاق الفاسدة، حتى تكون الانحرافات عادات مستطابات)[1].

ادعاء نسبية الأخلاق:

يعمل الملاحدة والماديون وأذنابهم في خطط خبيثة ماكرة على هدم صرح الأخلاق، من خلال دعوى أنَّ الأخلاق أمور اعتبارية نسبية لا ثبات لها، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن أمة إلى أمة. فالذي يعتبر منافيًا للأخلاق عند شعب من الشعوب، لا يعتبر منافيًا للأخلاق عند شعب آخر، وبعض ما كان مستنكرًا فيما مضى قد يعتبر مستحسنًا في عصر آخر، فالأخلاق عند هؤلاء مفاهيم اعتبارية تتواضع عليها الأمم والشعوب، وليس لها ثبات في حقيقتها.

(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/٩٨).

(وإنَّ أسباب الغلط أو المغالطة عند أصحاب فكرة نسبية الأخلاق، ترجع إلى ثلاثة:

الأول: تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني، فلم يميزوا الظواهر الخلقية، عن الظواهر الجمالية والأدبية، وعن العادات والتقاليد الاجتماعية، وعن التعاليم والأحكام المدنية أو الدينية البحتة، فحشروا مفردات كل هذه الأمور تحت عنوان الأخلاق، فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر، وهو حكمهم على الأخلاق بأنها أمور اعتبارية نسبية.

الثاني: أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، مع أنَّ في كثير من هذه المفاهيم أخطاء فادحة، وفسادًا كبيرًا، يرجع إلى تحكم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها، ويرجع أيضًا إلى أمور أخرى غير ذلك، والتحري العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة، حيث توجد الحقيقة، لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها، فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون، وينكرها منكرون، ويتشكك بها متشككون، ويتلاعب فيها متلاعبون، ومع ذلك تبقى على ثباتها، لا تؤثر عليها آراء الناس فيها.

الثالث: اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط، وجعلها المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق.

أما مفاهيم الإسلام فإنها... قد ميزت الأخلاق عما سواها، وميزت السلوك الأخلاقي عن سائر أنواع السلوك الإنساني، فلم تعمم تعميمًا فاسدًا، ولم تدخل في مفردات الأخلاق ما ليس منها، وهي أيضًا لم تعتمد على

مفاهيم الناس المختلفة، ولم تتخذها مصدرًا يرجع إليه في الحكم الأخلاقي، وأما العقل والضمير فإنها لم تهملهما وإنما قرنتهما بعاصم يردهما إلى الصواب كلما أخطأ سبيل الحق والهداية والرشاد، وهذا العاصم هو الوحي الذي نزل بدين الله لعباده، وشرائعه لخلقه، وتعاليمه التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنَّها تنزيل من عزيز حكيم، وقد بلغها رسله. أما صورتها المثلى المحفوظة من التغيير فهي ما ثبت في نصوص الشريعة الإسلامية، المنزلة على رسول الله محمد صلوات الله وسلاماته عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

فمن تبصَّر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر بأنَّ الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأنَّ هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجزاء الإلهي بالثواب العقاب، فإنَّه لابد أن يظهر له بجلاء أنَّ الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة مادام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أمورًا مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير ولا للتبدل من شعب إلى شعب، ولا من زمان إلى زمان.

أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتواضع فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بينها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه.

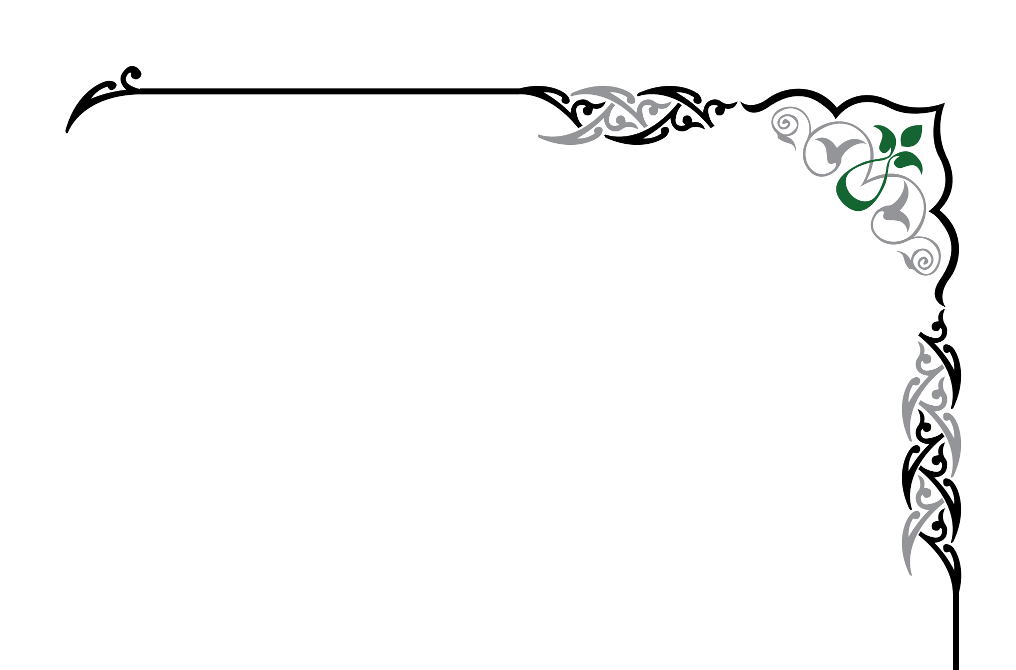
وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية وجدنا أنَّ كلَّ واحدة منها -ضمن شروطها وقيودها وضوابطها- ذات حقيقة ثابتة، وهي غير قابلة في المنطق السليم للتحول من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن. إنَّ حسنها حسن في كلِّ زمان، وقبيحها قبيح في كلِّ زمان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها، أو تحسين القبيح، تأثرًا بالأهواء،

أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء.

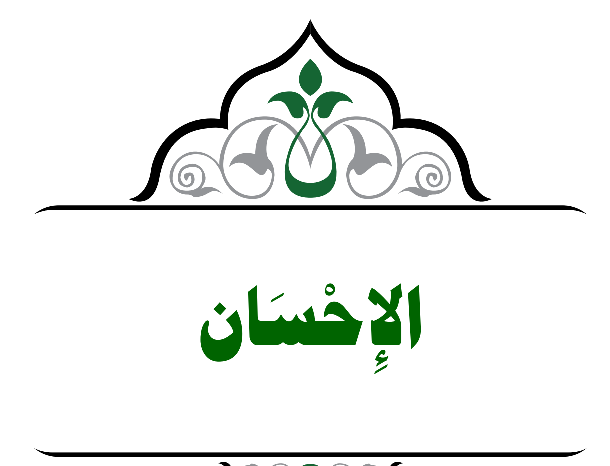
إنَّ الإسلام يقرر أنَّ حبَّ الحقِّ وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أنَّ كراهية الحقِّ وحبَّ الباطل رذيلة خلقية، فهل يشكُّ أحد سويٌّ عاقل في أنَّ هذه الحقيقة حقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟! وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية)[1].



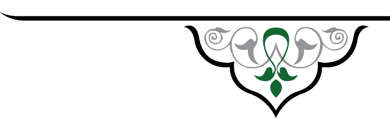
(١) ((الأخلاق الإسلامية وأسسها)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (١/ ٩١) بتصرف.



الأَخْلَاقُ المحْمُودَةَ



الإِحْسَان



الإحْسَان

معنى الإحْسَان لغةً واصطلاحًا:

• معنى الإحْسَان لغةً:

الإحْسَان ضِدُّ الإساءة. مصدر أحسن أي جاء بفعل حسن[١].

• معنى الإحْسَان اصطلاحًا:

(الإحْسَان نوعان:

- إحسان في عبادة الخالق: بأن يعبد الله كأنَّه يراه فإن لم يكن يراه فإنَّ الله يراه. وهو الجِدُّ في القيام بحقوق الله على وجه النُّصح، والتَّكميل لها.

- وإحسانٌ في حقوق الخَلْق... هو بذل جميع المنافع مِن أي نوعٍ كان، لأي مخلوق يكون، ولكنَّه يتفاوت بتفاوت المحْسَن إليهم، وحقِّهم ومقامهم، وبحسب الإحْسَان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحْسِن وإخلاصه، والسَّبب الدَّاعي له إلى ذلك)[٢].

وقال الراغب: (الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا)[٣].

الفرق بين الإحْسَان وبعض الصِّفات:

• الفرق بين الإحْسَان والإنْعَام:

(أَنَّ الإحْسَان يكون لنفس الإنسان ولغيره، تقول: أَحْسَنْتُ إلى نفسي.

---

(١) ((الفروق اللغوية)) للعسكري (١/١٩٣).

(٢) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (٢٠٤- ٢٠٦).

(٣) ((المفردات)) (ص ٢٣٦).

والإنْعَام لا يكون إلَّا لغيره)[١].

- **الفرق بين الإحْسَان والإفضَال:**

(أنَّ الإحسان: النفع الحسن.

والإفْضَال: النَّفع الزَّائد على أقلِّ المقدار، وقد خُصَّ الإحْسَان بالفضل، ولم يجب مثل ذلك في الزِّيادة؛ لأنَّه جرى مجرى الصِّفة الغالبة)[٢].

- **الفرق بين الإحْسَان والفضل:**

(أنَّ الإحْسَان قد يكون واجبًا وغير واجب.

والفضل لا يكون واجبًا على أحد، وإنَّما هو ما يتفضَّل به مِن غير سبب يوجبه)[٣].

الترغيب في الإحسان:

أولًا: في القرآن الكريم

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ٩٠].

قال السعدي: (الإحْسَان فضيلة مستحبٌّ، وذلك كنفع النَّاس بالمال والبدن والعِلْم، وغير ذلك مِن أنواع النَّفع حتى إنَّه يدخل فيه الإحْسَان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره)[٤].

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/١١٤).
(٢) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ٢٣).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٢٤).
(٤) ((تيسير الكريم الرحمن)) (ص ٤٤٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

أي: (أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعمُّ كلَّ إحسان قولي وفعلي ممَّا هو إحسان إليهم، وفيه النَّهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحْسَان والإساءة؛ لأنَّ الواجب الإحْسَان، والأمر بالشَّيء نهيٌ عن ضِدِّه.

وللإحْسَان ضِدَّان: الإساءة، وهي أعظم جرمًا، وترك الإحْسَان بدون إساءة، وهذا محرَّم، لكن لا يجب أن يلحق بالأوَّل، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى، والمساكين، وتفاصيل الإحْسَان لا تنحصر بالعَدِّ، بل تكون بالحَدِّ.

ثمَّ أمر بالإحْسَان إلى النَّاس عمومًا فقال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ومِن القول الحَسَن: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العِلْم، وبذل السَّلام، والبشاشة وغير ذلك مِن كلِّ كلام طيِّب.

ولـمَّا كان الإنسان لا يسع النَّاس بماله، أُمِر بأمرٍ يقدر به على الإحْسَان إلى كلِّ مخلوق، وهو الإحْسَان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النَّهي عن الكلام القبيح للنَّاس حتى للكفَّار)[1].

وقوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

(١) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (ص ٥٧).

قال الشَّوكاني في تفسير قوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾: (أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك مِن نعم الدُّنْيا)[1].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيِّم: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، فيه تنبيه ظاهر على أنَّ فعل هذا المأمور به هو الإحْسَان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم مِن الله هو رحمته، ورحمته قريبٌ مِن المحسنين الذين فعلوا ما أُمِروا به مِن دعائه خوفًا وطمعًا، فَقَرُب مطلوبكم منكم، وهو الرَّحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحْسَان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم؛ فإنَّ الله تعالى هو الغنيُّ الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرَّحمة مِن أهل الإحْسَان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أنَّ هذا القُرْب مستحقٌّ بالإحْسَان، فهو السَّبب في قرب الرَّحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بُعْد الرَّحمة مِن غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة. وإنَّما اختُصَّ أهل الإحْسَان بقرب الرَّحمة منهم؛ لأنَّها إحسان مِن الله أرحم الرَّاحمين، وإحسانه تعالى إنَّما يكون لأهل الإحْسَان؛ لأنَّ الجزاء مِن جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته. وأمَّا مَن لم يكن مِن أهل الإحْسَان فإنَّه لمَّا بَعُد عن الإحْسَان بَعُدَت عنه الرَّحمة بُعْدًا بِبُعْد، وقُربًا بقرب، فمَن تقرَّب بالإحْسَان تقرَّب الله إليه برحمته، ومَن تباعد عن الإحْسَان تباعد الله عنه برحمته، والله -سبحانه- يحبُّ المحسنين، ويبغض مَن ليس مِن المحسنين، ومَن أحبَّه الله فرحمته أقرب

(١) ((فتح القدير)) للشَّوكاني (٤/٢٦١).

شيء منه، ومَن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحْسَان- هاهنا-: هو فِعْل المأمور به سواءً كان إحسانًا إلى النَّاس أو إلى نفسه، فأعظم الإحْسَان: الإيمان والتَّوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتَّوكل عليه، وأن يعبد الله كأنَّه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقام الإحْسَان، كما قال النَّبيُّ، وقد سأله جبريل عن الإحْسَان، فقال: ((أن تعبد الله كأنَّك تراه))[1][2].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: ((إنَّ الله كتب الإحْسَان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَه، فليُرح ذبيحته))[3].

قال المباركفوري: (قوله: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء)). أي: إلى كلِّ شيء، أو ((على)) بمعنى: في، أي: أمركم بالإحْسَان في كلِّ شيء، والمراد منه العموم الشَّامل للإنسان حيًّا وميتًا. قال الطِّيبي: أي أوجب مبالغة؛ لأنَّ الإحْسَان هنا مستحبٌّ، وضمَّن الإحْسَان معنى التَّفضُّل وعدَّاه بعلى. والمراد بالتَّفضُّل: إراحة الذَّبيحة بتحديد الشَّفرة، وتعجيل إمرارها وغيره. وقال الشُّمُنِّيُّ: على- هنا- بمعنى اللام متعلِّقة بالإحْسَان، ولا بدَّ مِن على أخرى محذوفة بمعنى: الاستعلاء المجازي، متعلِّقة بكَتَبَ، والتَّقدير: كَتَبَ على النَّاس الإحْسَان لكلِّ شيء)[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٣/١٧-١٨).

(٣) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٤) ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٤/٦٦٤-٦٦٥).

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهليَّة؟ قال: ((مَن أحسن في الإسلام لم يُؤاخذ بما عمل في الجاهليَّة، ومَن أساء في الإسلام أُخذ بالأوَّل والآخر))[1].

- وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: ((أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر مِن الله. قال: فهل مِن والديك أحدٌ حيٌّ؟ قال: نعم، بل كلاهما. قال: أفتبتغي الأجر مِن الله؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما))[2].

- وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص؛ قال: حدَّثني أبي، أنَّه شهد حجَّة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحمد الله وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ. فذكر في الحديث قصةً فقال: ((ألا واستوصوا بالنِّساء خيرًا، فإنَّما هنَّ عَوَان عندكم ليس تملكون منهنَّ شيئًا غير ذلك، إلَّا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنَة، فإن فعلن فاهجروهنَّ في المضاجع، واضربوهنَّ ضربًا غير مُبرِّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلًا. ألا إنَّ لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا. فأمَّا حقُّكم على نسائكم فلا يُوطِئْن فرشكم مَن تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وحقُّهنَّ عليكم أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهنَّ وطعامهنَّ))[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله صلى - الله عليه وسلم: ((كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأت؟ قال النَّبيُّ صلى

(١) رواه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٩).

(٣) رواه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه (١٨٥١)، والنسائي في ((الكبرى)) (٢٦٤/٨). قال الترمذي: حسن صحيح. وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (١٧٩/٦)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٧٨٨٠).

الله عليه وسلم: إذا سمعت جيرانك يقولون: أن قد أحسنت فقد أحسنت. وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت، فقد أسأت))[١].

أقوال السَّلف والعلماء في الإحسان:

- قال ابن عيينة: (سئل علي رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠]، فقال: العدل: الإنصاف، والإحْسَان: التفضُّل)[٢].

- وقرأ الحسن البصري: (هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠] الآية، ثمَّ وقف فقال: إنَّ الله جمع لكم الخير كلَّه والشَّر كلَّه في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحْسَان شيئًا مِن طاعة الله عزَّ وجلَّ إلَّا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي مِن معصية الله شيئًا إلَّا جَمَعه)[٣].

- وقال ابن القيِّم: (مفتاح حصول الرَّحمة الإحْسَان في عبادة الخالق، والسَّعي في نفع عبيده)[٤].

- وقال أيضًا: (فإنَّ الإحْسَان يفرح القلب ويشرح الصَّدر ويجلب النِّعم ويدفع النِّقم، وتركه يوجب الضَّيم والضِّيق، ويمنع وصول النِّعم إليه، فالجبن: ترك الإحْسَان بالبدن، والبخل: ترك الإحْسَان بالمال)[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٢٣)، وأحمد (١/٤٠٢) (٣٨٠٨)، وابن حبان (٢/٢٨٥) (٥٢٦). وجوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٢/١١٢)، وقال الهيثمي في ((المجمع)) (١٠/٢٧٤): رجاله رجال الصَّحيح. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((تخريج المسند)) (٥/٣٠٩).

(٢) رواه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٧/٢٩١).

(٣) ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٢/١٥٨).

(٤) ((حادي الأرواح)) (ص ٦٦).

(٥) ((طريق الهجرتين)) (ص ٤٦٠).

- وقال في موضع آخر: (ومِن منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين: منزلة الإحْسَان؛ وهي لبُّ الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكلُّ ما قيل مِن أوَّل الكتاب إلى هاهنا فهو مِن الإحْسَان)[1].

- وقال رجلٌ لأحد السلاطين: (أحقُّ النَّاس بالإحْسَان مَن أحسن الله إليه، وأولاهم بالإنصاف مَن بُسِطت القدرة بين يديه؛ فاسْتَدِمِ ما أوتيت مِن النِّعم بتأدية ما عليك مِن الحقِّ)[2].

فوائد الإحْسَان[3]:

١- للإحْسَان ثمرة عظيمة تتجلَّى في تماسك بنيان المجتمع، وحمايته مِن الخراب والتَّهلكة ووقايته مِن الآفات الاجتماعيَّة.

٢- المحسن يكون في معيَّة الله عزَّ وجلَّ، ومَن كان الله معه فإنَّه لا يخاف بأسًا ولا رهقًا.

٣- المحسن يكتسب بإحسانه محبَّة الله عزَّ وجلَّ.

٤- للمحسنين أجر عظيم في الآخرة حيث يكونون في مأمن مِن الخوف والحزن.

٥- المحسن قريب مِن رحمة الله عزَّ وجلَّ.

٦- الإحْسَان هو وسيلة المجتمع للرُّقي والتَّقدُّم، وإذا كان صنوه، أي: العدل وسيلة لحفظ النَّوع البَشَريِّ فإنَّ الإحْسَان هو وسيلة تقدمه ورقيِّه؛ لأنَّه

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم (٣/٣١٩).

(٢) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٣/٢٠).

(٣) من رقم ١ إلى ٧ منقول من كتاب: ((نضرة النعيم)) لمجموعة مِن المؤلفين (٢/٩١).

يؤدِّي إلى توثيق الرَّوابط وتوفير التَّعاون.

٧- الإحْسَان وسيلة لإزالة ما في النُّفوس مِن الكدر وسوء الفهم وسوء الظَّنِّ ونحو ذلك.

٨- الإحْسَان في عبادة الخالق يمنع عن المعاصي.

قال ابن القيِّم: (فإنَّ الإحْسَان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإنَّ مَن عبد الله كأنَّه يراه، لم يكن كذلك إلَّا لاستيلاء ذكره ومحبَّته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنَّه يشاهده، وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلًا عن مواقعتها، فإذا خرج مِن دائرة الإحْسَان، فاته صحبة رفقته الخاصَّة، وعيشهم الهنيء، ونعيمهم التَّام، فإن أراد الله به خيرًا أقرَّه في دائرة عموم المؤمنين)[1].

٩- الإحْسَان إلى النَّاس سببٌ مِن أسباب انشراح الصَّدر:

الذي يحسن إلى النَّاس ينشرح صدره، ويشعر بالرَّاحة النَّفسيَّة، وقد ذكر ابن القيِّم في (زاد المعاد) أن الإحْسَان مِن أسباب انشراح الصَّدر، فقال: (... إنَّ الكريم المحسن أشرح النَّاس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق النَّاس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا)[2].

١٠- الإحْسَان إلى النَّاس يطفئ نار الحاسد.

(إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحْسَان إليه، فكلَّما ازداد أذًى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً، وما

---

(١) ((الجواب الكافي)) (٥٥-٥٦).

(٢) ((زاد المعاد في هدي خير العباد)) (٢/٢٢).

أظنُّك تصدِّق بأنَّ هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصِّلت: ٣٤-٣٦] وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]... هذا مع أنَّه لا بدَّ له مع عدوِّه وحاسده مِن إحدى حالتين، إمَّا أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد له ويذلُّ له، ويبقى مِن أحبِّ النَّاس إليه، وإمَّا أن يفتِّت كبده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنَّه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ومَن جرَّب هذا عرفه حقَّ المعرفة، والله هو الموفق المعين بيده الخير كلِّه لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنِّه وكرمه)[(١)].

أقسام الإحْسَان:

الإحْسَان ينقسم إلى قسمين: إحسان في عبادة الله. وإحْسَان إلى عباد الله، وكل قسم منهما ينقسم إلى واجب ومستحب .

فأما الإحسان في عبادة الله فيتضمن الإحْسَان في الإتيان بالواجبات الظَّاهرة والباطنة، وذلك بـ(الإتيان بها على وجه كمال واجباتها، فهذا القَدْر مِن الإحْسَان فيها واجبٌ، وأمَّا الإحْسَان فيها بإكمال مستحبَّاتها فليس بواجب.

والإحْسَان في ترك المحرَّمات: الانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فهذا القدر مِن الإحْسَان فيها واجبٌ.

(١) ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٢/٢٤٣-٢٤٤).

وأمَّا الإِحْسَان في الصَّبر على المقدورات، فأن يأتي بالصَّبر عليها على وجهه مِن غير تسخُّط ولا جزع)[1].

وأما الإحسان إلى عباد الله فالواجب منه (هو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجَّه عليك مِن الحقوق...بأن تقوم بحقوقهم الواجبة، كالقيام ببرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإنصاف في جميع المعاملات، بإعطاء جميع ما عليك مِن الحقوق، كما أنَّك تأخذ مالك وافيًا. قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النِّساء: ٣٦] فأمر بالإحْسَان إلى جميع هؤلاء)[2].

وقال ابن رجب: (والإحْسَان الواجب في معاملة الخَلْق ومعاشرتهم: القيام بما أوجب الله مِن حقوق ذلك كلِّه، والإحْسَان الواجب في ولاية الخَلْق وسياستهم، القيام بواجبات الولاية كلِّها)[3].

وأما المستحب منه فهو (القَدْرُ الزَّائد على الواجب في ذلك كلِّه)[4]. ومثال ذلك (بذل نفع بدنيٍّ، أو ماليٍّ، أو علميٍّ، أو توجيه لخير دينيٍّ، أو مصلحة دنيويَّة، فكلُّ معروف صَدَقة، وكلُّ ما أدخل السُّرور على الخَلْق صَدَقة وإحسان. وكلُّ ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون مِن قليل أو كثير، فهو صَدَقة وإحسان)[5].

---

(١) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/٣٨٢).
(٢) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ٢٠٤).
(٣) ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/٣٨٢-٣٨٣).
(٤) ((المصدر السابق)) (١/٣٨٢-٣٨٣).
(٥) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ٢٠٥).

صور الإحْسَان:

قبل أن نُفَصِّلَ في صور الإحْسَان نذكر هذه الصور على جهة الإجمال، والتي منها الإحسان في العبادات، والإحسان في المعاملات، والإحسان إلى الحيوانات، والإحسان في الأعمال البدنية، فـ(الإحْسَان في باب العبادات أن تؤدِّى العبادة أيًّا كان نوعها؛ مِن صلاة أو صيام أو حجٍّ أو غيرها أداءً صحيحًا، باستكمال شروطها وأركانها، واستيفاء سننها وآدابها، وهذا لا يتمُّ للعبد إلَّا إذا كان شعوره قويًّا بمراقبة الله عزَّ وجلَّ حتى كأنَّه يراه تعالى ويشاهده، أو على الأقلِّ يشعر نفسه بأنَّ الله تعالى مطَّلع عليه، وناظرٌ إليه، فبهذا وحده يمكنه أن يحسن عبادته ويتقنها، فيأتي بها على الوجه المطلوب، وهذا ما أرشد إليه الرَّسول صلى الله عليه وسلم في قوله: ((الإحْسَان أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)).

وفي باب المعاملات فهو للوالدين ببرِّهما بالمعروف، وطاعتهما في غير معصية الله، وإيصال الخير إليهما، وكفِّ الأذى عنهما، والدُّعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما.

وهو للأقارب ببرِّهم ورحمتهم والعطف عليهم، وفعل ما يَجْمُل فعله معهم، وترك ما يسيء إليهم.

وهو لليتامى بالمحافظة على أموالهم، وصيانة حقوقهم، وتأديبهم وتربيتهم بالحسنى، والمسح على رؤوسهم.

وهو للمساكين بسدِّ جوعهم، وستر عورتهم، وعدم احتقارهم وازدرائهم، وعدم المساس بهم بسوء، وإيصال النَّفع إليهم بما يستطيع، وهو لابن السَّبيل بقضاء حاجته، وسدِّ خلَّته، ورعاية ماله، وصيانة كرامته، وبإرشاده إن استرشد، وهدايته إن ضلَّ.

وهو للخادم بإتيانه أجره قبل أن يجفَّ عرقه، وبعدم إلزامه ما لا يلزمه، أو تكليفه بما لا يطيق، وبصون كرامته، واحترام شخصيَّته.

وهو لعموم النَّاس بالتَّلطُّف في القول لهم، ومجاملتهم في المعاملة، وبإرشاد ضالِّهم، وتعليم جاهلهم، والاعتراف بحقوقهم، وبإيصال النَّفع إليهم، وكفِّ الأذى عنهم.

وهو للحيوان بإطعامه إن جاع، ومداواته إن مرض، وبعدم تكليفه ما لا يطيق، وحمله على ما لا يقدر، وبالرِّفق به إن عمل، وإراحته إن تعب.

وهو في الأعمال البدنيَّة بإجادة العمل، وإتقان الصَّنعة، وبتخليص سائر الأعمال مِن الغش، وهكذا)[١]. وإليك تفاصيل هذه الصُّور:

١- الإحْسَان في عبادة الله:

(والإحْسَان في عبادة الله له ركن واحد بيَّنه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: ((بأن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)). فأخبر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ مرتبة الإحْسَان على درجتين، وأنَّ المحسنين في الإحْسَان على درجتين متفاوتتين، الدَّرجة الأولى: وهي ((أن تعبد الله كأنَّك تراه)). الدَّرجة الثَّانية: أن تعبد الله كأنَّه يراك، والمعنى إذا لم تستطع أن تعبد الله كأنَّك تراه وتشاهده رأي العين، فانزل إلى المرتبة الثَّانية، وهي أن تعبد الله كأنَّه يراك. فالأولى عبادة رغبة وطمع، والثَّانية عبادة خوف ورهب)[٢].

٢- الإحْسَان إلى الوالدين:

جاءت نصوص كثيرة تحثُّ على حقوق الوالدين وبرِّهما والإحْسَان إليهما

(١) ((منهاج المسلم)) لأبي بكر الجزائري (١٦٩-١٧١).

(٢) ((أعمال القلوب)) لسهل بن رفاع العتيبي (١/٥٨)، بتصرُّف.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

قال القرطبي: (قال العلماء: فأحقُّ النَّاس بعد الخالق المنَّان بالشُّكر والإحْسَان والتزام البرِّ والطَّاعة له والإذعان مَن قرن الله الإحْسَان إليه بعبادته وطاعته، وشكره بشكره، وهما الوالدان، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤])[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ العمل أفضل؟ قال: الصَّلاة لوقتها. قال قلت: ثمَّ أي؟ قال: برُّ الوالدين. قال قلت: ثمَّ أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله))[2].

قال الرَّازي: (أجمع أكثر العلماء على أنَّه يجب تعظيم الوالدين والإحْسَان إليهما إحسانًا غير مقيَّد بكونهما مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣])[3].

٣- الإحْسَان إلى الجار:

عن أبي شُريح الخُزاعي أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

(١) ((الجامع لأحكام القرآن)) (١٨٣/٥).
(٢) رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٥).
(٣) ((فيض القدير)) للمناوي (٢٥٩/٣).

ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت))[(١)].

ويكرم جاره بالإحسان إليه وكف الأذى عنه، وتحمل ما يصدر منه، والبشر في وجهه، وغير ذلك من وجوه الإكرام[(٢)].

٤- الإحْسَان إلى اليتامى والمساكين:

ومِن الإحْسَان إلى اليتامى والمساكين: المحافظة على حقوقهم والقيام بتربيتهم، والعطف عليهم، ومدُّ يد العون لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

(فإنَّ الإحْسَان إليهم والبرَّ بهم وكفالة عيشهم وصيانة مستقبلهم مِن أزكى القربات، بل إنَّ العواطف المنحرفة تعتدل في هذا المسلك وتلزم الجادَّة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنَّ رجلًا شكا إلى رسول الله قسوة قلبه، فقال: ((امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين))[(٣)]. وفي رواية: أنَّ رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه، فقال له: ((أتحبُّ أن يلين قلبك وتدرك حاجتك، ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه مِن طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك))[(٤)]. وذلك أنَّ القلب يتبلَّد في المجتمعات التي تضجُّ بالمرح الدَّائم، والتي تصبح وتمسي وهي لا

---

(١) رواه مسلم (٤٨) مِن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ((التحفة الربانية في شرح الأربعين النووية)) لإسماعيل بن محمد السعدي (ص ٣٥).

(٣) رواه أحمد (٢/٣٨٧) (٩٠٠٦). قال المنذري في ((الترَّغيب والترَّهيب)) (٣/٣١٦) والهيثمي في ((المجمع)) (٨/١٦٣): رجاله رجال الصَّحيح. وحسَّنه لغيره الألباني في ((صحيح التَّرغيب)) (٢٥٤٥).

(٤) ذكره المنذري في ((الترَّغيب والترَّهيب)) (٣/٢٣٧) وقال: رواه الطَّبراني مِن رواية بقيَّة، وفيه راوٍ لم يُسم.

ترى مِن الحياة غير آفاقها الزَّاهرة ونعمها الباهرة، والمترفون إنَّما يتنكَّرون لآلام الجماهير؛ لأنَّ الملذَّات –التي تُيَسَّر لهم– تُغلِّف أفئدتهم وتطمس بصائرهم، فلا تجعلهم يشعرون بحاجة المحتاج وألم المتألِّم وحزن المحزون، والنَّاس إنَّما يُرْزَقون الأفئدة النَّبيلة والمشاعر المرهفة عندما ينقلبون في أحوال الحياة المختلفة، ويُبْلَون مسَّ السَّرَّاء والضَّرَّاء.. عندئذ يحسُّون بالوحشة مع اليتيم وبالفقدان مع الثَّكلى وبالتعب مع البائس الفقير)[1].

٥- الإحسان في المعاملات التجارية[2]:

قد أمر الله تعالى بالعدل والإحْسَان جميعًا، والعدل سبب النَّجاة فقط، وهو يجري من التِّجارة مجرى سلامة رأس المال، والإحْسَان سبب الفوز ونيل السَّعادة، وهو يجري من التِّجارة مجرى الرِّبح، ولا يُعدُّ مِن العقلاء مَن قنع في معاملات الدُّنْيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة.

ولا ينبغي للمتديِّن أن يقتصر على العدل واجتناب الظُّلم، ويدع أبواب الإحْسَان وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النَّحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وينال المعامل رتبة الإحْسَان بواحدٍ مِن ستَّة أمور:

الأوَّل: في المغابنة، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأمَّا أصل المغابنة فمأذونٌ فيه، لأنَّ البيع للرِّبح، ولا يمكن ذلك إلَّا بغبن، ولكن يراعى فيه التَّقريب، ومَن قنع بربحٍ قليلٍ كثرت معاملاته، واستفاد مِن تكررها ربحًا كثيرًا، وبه تظهر البركة.

---

(١) ((خلق المسلم)) للغزَالي (ص ١٩٣).

(٢) انظر: ((موعظة المؤمنين)) لجمال الدين القاسمي (ص ١١٦).

الثَّاني: في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعامًا مِن ضعيف أو شيئًا مِن فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسنًا وداخلًا في قوله عليه السَّلام: ((رحم الله سهل البيع وسهل الشِّراء))[1]، وأما احتمال الغبن مِن الغني فليس محمودًا، بل هو تضييع مال مِن غير أجر ولا حمد، وكان كثيرٌ مِن السَّلف يستقصون في الشِّراء، ويهبون مِن ذلك الجزيل مِن المال، فقيل لبعضهم في ذلك فقال: إنَّ الواهب يعطي فضله، وإنَّ المغبون يغبن عقله.

الثَّالث: في استيفاء الثَّمن وسائر الدُّيون والإِحْسَان فيه مرَّة بالمسامحة وحطِّ البعض، ومرَّة بالإمهال والتَّأخير، ومرَّة بالمساهلة في طلب جودة النَّقد، وكلُّ ذلك مندوبٌ إليه ومحثوثٌ عليه، وفي الخبر: ((مَن أقرض دينارًا إلى أجلٍ، فله بكلِّ يوم صدقة إلى أجله، فإذا حلَّ الأجل فأنظره بعده، فله بكلِّ يوم مثل ذلك الدَّين صدقة))[2]، ونظر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلازم رجلًا بدين، فأومأ إلى صاحب الدَّين بيده، أي: ضع الشَّطر، ففعل، فقال للمديون: ((قم فأعطه))[3].

الرَّابع: في توفية الدَّين، ومِن الإِحْسَان فيه حسن القضاء، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحقِّ، ولا يكلِّفه أن يمشي إليه يتقاضاه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((خيركم أحسنكم قضاءً))[4]، ومهما قدر على قضاء الدَّين

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٦) بلفظ: (رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى) مِن حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-. ورواه الطَّبراني في ((الأوسط)) (١٠٧/٦) بلفظ: (رحم الله سهل الشِّراء، سهل القضاء، سهل التَّقاضي) مِن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) ذكره الغَزَّالي في ((إحياء علوم الدِّين)) (٨١/٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧١)، ومسلم (١٥٥٨) مِن حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٤) جزء من حديث رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).

فليبادر إليه ولو قبل وقته، وإن عجز فلينوِ قضاءه مهما قدر، ومهما كلَّمه مستحقُّ الحقِّ بكلام خشن، فليتحمَّله وليقابله باللُّطف اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم لـمَّا ردَّد عليه كلامه صاحب الدَّين، فهمَّ به أصحابه، فقال: ((دعوه؛ فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا))[1]. ومِن الإحْسَان أن يميل الحكم إلى مَن عليه الدَّين لعسره.

الخامس: أن يُقيل[2] مَن يستقيله؛ فإنَّه لا يستقيل إلاَّ متندِّمٌ مُسْتَضِرٌّ بالبيع، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه، وفي الخبر: ((مَن أقال نادمًا صفقته، أقال الله عثرته يوم القيامة))[3].

السَّادس: أن يقصد في معاملته جماعة مِن الفقراء بالنَّسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم مَيْسَرة، وكان مِن السَّلف مَن يقول لفقير: خذ ما تريد، فإن يُسِّر لك فاقض، وإلَّا فأنت في حلٍّ منه وسعة.

٦- الإحْسَان إلى المسيء:

(ومِن أجلِّ أنواع الإحْسَان: الإحْسَان إلى مَن أساء إليك بقولٍ أو فعلٍ. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أقاله يقيله إقالة. وتقايلا إذا فسخا البيع وعاد المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري، وتكون الإقالة في البيعة والعهد. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/٥٨٠).

(٣) رواه ابن حبان (١١/٤٠٤) (٥٠٢٩)، والبزار (١٥/٣٧٤) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وضعَّفَه الدارقطني في ((لسان الميزان)) في (٦/١٠٠). وقال ابن حجر في ((لسان الميزان)) (٣/١٥٩): [فيه] الحسين بن حميد الخزاز قال ابن عدي: هو متَّهم فيها. وقال الشَّوكاني في ((السَّيل الجرَّار)) (٣/١٣٩): صحَّحه جماعة مِن الحفاظ.

ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصِّلت: ٣٤-٣٥].

ومن كانت طريقته الإحْسَان، أحسن الله جزاءه: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠])[١].

وذكر الهرويُّ أنَّ مِن منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (الفتوَّة)، وقال: (هي على ثلاث درجات، الدَّرجة الأولى ترك الخصومة، والتَّغافل عن الزلَّة، ونسيان الأذيَّة. والدَّرجة الثَّانية أن تقرِّب مَن يقصيك، وتكرم مَن يؤذيك، وتعتذر إلى مَن يجني عليك، سماحةً لا كظمًا، ومودَّةً لا مصابرةً)[٢].

قال ابن القيِّم في ذلك: (هذه الدَّرجة أعلى ممَّا قبلها وأصعب؛ فإنَّ الأولى تتضمَّن ترك المقابلة والتَّغافل، وهذه تتضمَّن الإحْسَان إلى مَن أساء إليك، ومعاملته بضِدِّ ما عاملك به، فيكون الإحْسَان والإساءة بينك وبينه خُطَّتين فخُطَّتك: الإحْسَان. وخُطَّته: الإساءة.

وفي مثلها قال القائل:

إذا مرِضْنا أتيْناكم نَعودُكمُ وتُذْنبون فنَأْتيكم ونَعتذرُ

ومَن أراد فهم هذه الدَّرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مع النَّاس يجدها بعينها)[٣].

٧- الإحْسَان في الكلام:

قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

---

(١) ((بهجة قلوب الأبرار)) للسعدي (ص ٢٠٦).
(٢) ((مدارج السَّالكين)) لابن القيِّم (١٣٩/٣).
(٣) ((المصدر السابق)).

قال ابن كثير: (يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطَّيبة؛ فإنَّهم إذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشَّرُّ والمخاصمة والمقاتلة، فإنَّ الشَّيطان عدوٌّ لآدم وذرِّيته مِن حين امتنع مِن السُّجود لآدم، فعداوته ظاهرة بيِّنة؛ ولهذا نهى أن يشير الرَّجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإنَّ الشَّيطان ينزغ في يده، أي: فربَّما أصابه بها)[1].

٨- الإحْسَان في الجدال:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النَّحل: ١٢٥].

قال الشَّوكاني: (أي: بالطَّريق التي هي أحسن طرق المجادلة. وإنَّما أمر -سبحانه- بالمجادلة الحسنة لكون الدَّاعي محقًّا وغرضه صحيحًا، وكان خصمه مبطلًا وغرضه فاسدًا)[2].

٩- الإحْسَان إلى الحيوان:

ومِن الإحْسَان إلى الحيوان، إطعامه والاهتمام به، وحدُّ الشَّفرة عند ذبحه، وأن لا يحدَّ الشَّفرة أمامه، وعدم الحمل إليه أكثر مِن طاقته.

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله كتب الإحْسَان على كلِّ شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة...))، وكره أبو هريرة أن تُحَدَّ الشَّفرة والشَّاة تنظر إليها، وروى أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا أضجع شاة، فوضع رجله على عنقها، وهو يحدُّ شَفْرته، فقال له صلى الله عليه وسلم: ((ويلك، أردت أن

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) (٥/٨٧).

(٢) ((فتح القدير)) (٣/٢٨٧).

تميتها موتات؟ هلا أحددت شَفْرتك قبل أن تضجعها))[١]، وكان عمر بن الخطَّاب ينهى أن تُذْبَح الشَّاة عند الشَّاة[٢].

قال ابن رجب: (والإحْسَان في قتل ما يجوز قتله مِن النَّاس والدَّواب: إزهاق نفسه على أسرع الوجوه، وأسهلها. وهذا النَّوع هو الذي ذكره النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث، ولعلَّه ذكره على سبيل المثال، أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال، فقال: ((إذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة))، والقِتْلة والذِّبْحة -بالكسر- أي: الهيئة، والمعنى: أحسنوا هيئة الذَّبح، وهيئة القَتْل. وهذا يدلُّ على وجوب الإسراع في إزهاق النُّفوس التي يُبَاح إزهاقها على أسهل الوجوه. وقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإحْسَان في الذَّبيحة)[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((في كلِّ كبد رطبة أجر))[٤].

قال النَّوويُّ: (معناه في الإحْسَان إلى كلِّ حيوان حي -بسقيه ونحوه- أجر، وسمَّي الحي ذا كبد رطبة؛ لأنَّ الميِّت يجفُّ جسمه وكبده. ففي الحديث الحثُّ على الإحْسَان إلى الحيوان المحترم، وهو ما لا يُؤمر بقتله. فأمَّا المأمور بقتله فيمتثل أمر الشَّرع في قتله، والمأمور بقتله كالكافر الحربي والمرتد والكلب العقور

---

(١) رواه الحاكم (٢٥٧/٤)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٩١٤١) مِن حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي في ((التلخيص))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٦٦٧). ورواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (٤٩٣/٤) مِن حديث عكرمة.

(٢) رواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (٤٩٣/٤).

(٣) ((جامع العلوم والحكم)) (٣٨٢/١).

(٤) رواه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والفواسق الخمس المذكورات في الحديث وما في معناهن. وأمَّا المحترم فيحصل الثَّواب بسقيه والإحْسَان إليه، أيضًا بإطعامه وغيره سواءً كان مملوكًا أو مباحًا، وسواءً كان مملوكًا له أو لغيره)[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((عُذِّبت امرأة في هرَّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النَّار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل خَشَاش الأرض))[٢].

الأمثال في الإحْسَان:

- اسْقِ رَقَاشِ إنَّها سَقَّايَة:

يُضْرَب في الإحْسَان إلى المحسن[٣].

- إنَّما يَجْزِي الفَتى لَيْسَ الجَمَل:

ومعناه إنَّما يجزي على الإحْسَان بالإحْسَان مَن هو حرٌّ وكريم، فأمَّا مَن هو بمنزلة الجمل في لؤمه وموقه[٤]، فإنَّه لا يُوصَل إلى النَّفع مِن جهته إلاَّ إذا اقتُسر وقُهر[٥].

- إنَّما هو كبَارِحِ الأَرْوَى قليلًا ما يُرى:

وذلك أن الأرْوَى مساكنُها الجبالُ، فلا يكاد النَّاس يرونها سانحةً ولا بارحةً إلَّا في الدَّهر مرَّة. يُضْرب لمن يُرى منه الإحْسَان في الأحايين[٦].

---

(١) ((شرح مسلم)) (١٤/٣٤٧).
(٢) رواه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) مِن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه .
(٣) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/٣٣٣) ورقاش اسم امرأة.
(٤) الموق: حمق في غباوة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٣٥٠).
(٥) ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (١/٥٧).
(٦) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١/٢٥).

- جَزَيْتُهُ كَيْلَ الصَّاعِ بِالصَّاعِ:

إذا كافأتَ الإحْسَانَ بمثله والإساءةَ بمثلها(١).

- وجدت النَّاسَ إن قارضْتَهُم قارَضُوك:

أي: إن أحسنت إليهم أحسنوا إليك، وإن أسأت فكذلك(٢).

الإحْسَان في واحة الشِّعر:

قال أبو الفتح البستي:

زيادةُ المرءِ في دنياه نقصانُ ... وربحُه غيرَ محضِ الخير خسرانُ

أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهم ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

مَن جادَ بالمالِ مالَ النَّاسُ قاطبةً ... إليه والمالُ للإنسانِ فتَّانُ

أَحْسِنْ إذا كان إمكانٌ ومَقْدِرَةٌ ... فلن يدومَ على الإنسان إمكانُ

حيَّاك مَن لم تكنْ ترجو تحيَّتَه ... لولا الدَّراهمُ ما حيَّاك إنسانُ(٣)

وقال أيضًا:

إن كنتَ تطلبُ رتبةَ الأشرافِ ... فعليك بالإحسانِ والإنصافِ

وإذا اعتدى خِلٌّ عليكَ فخلِّهِ ... والدَّهرَ فهو له مكافٍ كافِ(٤)

وقال المتنبي:

وللتَّرْك للإحسانِ خيرٌ لمحسنٍ ... إذا جَعَلَ الإحْسَانَ غيرَ ربيبِ(٥)

---

(١) ((مجمع الأمثال)) لأبي الفضل النيسابوري (١٦٨/١).

(٢) ((المصدر السابق)) (٣٦٦/٢).

(٣) ((قصيدة عنوان الحكم)) لأبي الفتح البستي (ص ٣٥).

(٤) ((تاريخ دنيسر)) لأبي حفص (ص ١٣٢).

(٥) ((ديوان أبي الطيب المتنبي)) (ص ٣٢٣).

وقال أحمد الكيواني:

مَن يغرسِ الإحْسَانَ يجنِ محبَّةً دونَ المسيءِ المبعدِ المصرومِ
أقِلِ العثارَ تُقَلْ ولا تحسدْ ولا تحقِدْ فليسَ المرءُ بالمعصومِ

وقال ابن زنجي:

لا تَحْقِرَنَّ مِن الإحسانِ محقرةً أحْسِنْ فعاقبةُ الإحسانِ حُسناه

وقال آخر:

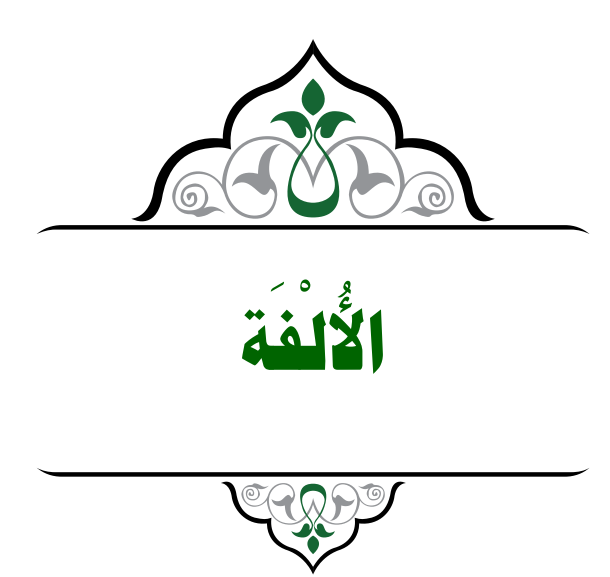
واللهِ ما حُلي الإمامُ بحليةٍ أبهى مِن الإحْسَانِ والإنصافِ
فلسوفَ يلقى في القيامةِ فِعْلَه ما كان مِن كدرٍ أتاه وصافي(١)

وقال أبو العتاهية:

لا تمشِ في النَّاس إلَّا رحمةً لهمُ ولا تعاملْهم إلَّا بإنصافِ
واقطعْ قوَى كلِّ حقدٍ أنت مُضْمِرُه إن زلَّ ذو زلَّةٍ أو إن هفا هافِ
وارغبْ بنفسك عمَّا لا صلاحَ له وأوسِع النَّاسَ مِن برٍّ وإلطافِ
وإن يكنْ أحدٌ أولاك صالحةً فكافِهِ فوقَ ما أولى بأضعافِ
ولا تكشِّفْ مُسيئًا عن إساءتِه وصِل حبالَ أخيك القاطعِ الجافي(٢)



(١) ((الجوهر النفيس في سياسة الرئيس)) لابن الحداد (١٢٣).
(٢) ((ديوان أبي العتاهية)) (٢٧٩).



الأُلْفَة

الأُلْفَة

معنى الأُلْفَة لغةً واصطلاحًا:

• معنى الأُلْفَة لغةً:

يقال: ألِفته إلفًا –من باب علم– وألفته أنِسْت به، ولزمته وأحببته، والاسم الأُلفة بالضمِّ، والأُلفة أيضًا اسم من الائتلاف، وهو الالتئام والاجتماع.

فهو مُؤْلَفٌ ومأْلُوفٌ... وأَلَّفْتُ بينهم تأْلِيفًا إذا جَمَعْتَ بينَهم بعد تَفَرُّقٍ[(١)].

• معنى الأُلْفَة اصطلاحًا:

الأُلْفَة: اتِّفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش[(٢)].

وقال الرَّاغب: (الإلْفُ: اجتماع مع التئام، يقال: أَلَّفْتُ بينهم، ومنه: الأُلْفَة)[(٣)].

التَّرغيب الأُلْفَة:

أولًا: في القرآن الكريم

– قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الرَّاغب الأصفهاني: (قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ حث على الأُلْفَة والاجتماع، الذي هو نظام الإيمان واستقامة أمور العالم، وقد فضَّل المحبَّة والأُلْفَة على الإنصاف والعدالة، لأنَّه يحُتاج إلى الإنصاف حيث تفقد المحبَّة.

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/١٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/١٨).
(٢) ((التَّعريفات)) للجرجاني (ص ٣٤).
(٣) ((مفردات ألفاظ القرآن)) (ص ٨١).

ولصدق محبَّة الأب للابن صار مؤتمنًا على ماله، والأُلْفَة أحد ما شرَّف الله به الشَّريعة سيَّما شريعة الإسلام)[١].

- وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الزَّمخشريُّ: (كانوا في الجاهليَّة بينهم الإحَن والعداوات والحروب المتواصلة، فألَّف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبَّة، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخوانًا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمرٍ واحد، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوَّة في الله)[٢].

وقال السُّيوطي: (إذ كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام فآخى به بينكم وألف به بينكم، أما والله الذي لا إله إلَّا هو إنَّ الأُلْفَة لرحمة، وإنَّ الفُرْقَة لعذاب)[٣].

- وقال سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ (فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوَّتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوَّة غير قوَّة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعًا مِن ذهب وفضَّة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النُّفرة والفُرقة

---

(١) ((تفسير الرَّاغب الأصفهاني)) (٢/٧٦٥).

(٢) ((الكشَّاف)) (١/٣٩٥).

(٣) ((الدر المنثور)) (٢/٢٨٧).

الشَّديدة، ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لأنَّه لا يقدر على تقليب القلوب إلَّا الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ ومِن عزَّته أن ألَّف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة)[1].

وقال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾. (أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألُّف القلوب مع العصبيَّة الشَّديدة في العرب مِن آيات النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعجزاته؛ لأنَّ أحدهم كان يُلْطَم اللَّطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها. وكانوا أشدَّ خَلْق الله حميَّة، فألَّف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرَّجل أباه وأخاه بسبب الدِّين. وقيل: أراد التَّأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب)[2].

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: ((لـمَّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في النَّاس في المؤلَّفة قلوبهم، ولم يعطِ الأنصار شيئًا، فكأنَّهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب النَّاس، فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب النَّاس بالشَّاة والبعير، وتذهبون بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا مِن الأنصار، ولو سلك النَّاس واديًا وشعبًا لسلكت وادي

---

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) للسعدي (٣٢٥/١).

(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٤٢/٨).

الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والنَّاس دثار، إنَّكم ستلْقَون بعدي أَثَرَة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض))[١].

وهذا مِن أكبر نعم الله في بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ألَّف به بين قوم قويت بينهم العصبيَّات، وينبغي أن يكون شأن المسلم هكذا: يؤلِّف بين المتفرِّقين ويأتلف حوله المحبون[٢].

- وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن يأْلَف ويُؤْلَف، ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يُؤْلَف))[٣].

قال المناوي في شرح قوله: ((المؤمن يأْلَف)) قال: (لحسن أخلاقه وسهولة طباعه ولين جانبه. وفي رواية: ((إلْفٌ مَأْلُوفٌ)). والإلْف: اللَّازم للشَّيء، فالمؤمن يأْلَف الخير، وأهله ويألفونه بمناسبة الإيمان، قال الطِّيبي: وقوله: ((المؤمن

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠).

(٢) انظر: ((هذه أخلاقنا)) لمحمود الخزندار (ص ١٩٤).

(٣) رواه أحمد (٢/٤٠٠) (٩١٨٧) بلفظ: ((المؤمن مؤلف))، والحاكم (١/٧٣) واللفظ له، والبيهقي (١٠/٢٣٦) (٢١٦٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال ابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (٣/٦٩): منكر، وحسن إسناده الذهبي في ((المهذب)) (٨/٤٢٥٥)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/٢٧٦): رجال أحمد رجال الصحيح، وصحح إسناده الألباني في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٤٩٢٥).
ورواه أحمد (٥/٣٣٥) (٢٢٨٩١)، والطبراني (٦/١٣١) (٥٧٤٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/٢٧١) (٨١٢٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
قال ابن حبان في ((المجروحين)) (٢/٣٦٨): فيه مصعب بن ثابت منكر الحديث ممن ينفرد بالمناكير عن المشاهير، وقال البيهقي في ((الآداب)) (١٣٩): وروي عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود، فذكره مرسلًا موقوفًا، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٩٠): فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وغيره وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله ثقات، وجود إسناده في (١٠/٢٧٦)، وصححه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤٢٥).
والحديث روي من طريق جابر بن عبدالله وروي من طرق عن ابن مسعود رضي الله عنهما مرفوعًا وموقوفًا.

إلْفٌ)) يحتمل كونه مصدرًا على سبيل المبالغة، كرجل عدل، أو اسم كان، أي: يكون مكان الأُلْفَة ومنتهاها، ومنه إنشاؤها وإليه مرجعها، ((ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يُؤْلَف)) لضعف إيمانه، وعُسْر أخلاقه، وسوء طباعه. والأُلْفَة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله، وبه يحصل الإجماع بين المسلمين وبضِدِّه تحصل النُّفْرة بينهم، وإنَّما تحصل الأُلْفَة بتوفيقٍ إلهي... ومِن التَّآلف: ترك المداعاة والاعتذار عند توهُّم شيء في النَّفس، وتَرْك الجدال والمراء وكثرة المزاح)[1].

وقال الماورديُّ: (بيَّن به أن الإنسان لا يُصْلِح حاله إلَّا الأُلْفَة الجامعة؛ فإنَّه مقصود بالأذيَّة، محسود بالنِّعمة، فإذا لم يكن إلفًا مألوفًا تختطفه أيدي حاسديه، وتحكَّم فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تَصْفُ له مدَّة، وإذا كان إلفًا مألوفًا انتصر بالأُلْف على أعاديه، وامتنع بهم مِن حسَّاده، فسلمت نعمته منهم، وصفت مودَّته بينهم، وإن كان صفو الزَّمان كدرًا ويُسْرُه عسرًا وسلمه خطرًا)[2].

قال الرَّاغب الأصفهاني: (ولذلك حثَّنا على الاجتماعات في الجماعات والجمعات، لكون ذلك سببًا للأُلْفَة، بل لذلك عظَّم الله تعالى المنَّة على المؤمنين بإيقاع الأُلْفَة بين المؤمنين ... وليس ذلك في الإنسان فقط، بل لولا أنَّ الله تعالى ألَّف بين الأركان المتضادة، لما استقام العالم)[3].

- وعن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((خيار أئمتكم: الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويصلُّون عليكم، وتصلُّون عليهم، وشرار

---

(١) ((فيض القدير)) (٣٢٩/٦).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((تفسير الرَّاغب الأصفهاني)) (١٣٢/١).

أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم))[١].

إنَّ خيار النَّاس في نظر الشَّرع هم الذين يأْلَفون ويُؤْلَفون، وخاصَّة حين يكونون في منصب أو مسؤوليَّة، إذ قد ينزلقون إلى صورٍ مِن الغلظة والجفوة حين يكونون مطلوبين لا طالبين[٢].

- وقال صلى الله عليه وسلم: ((النَّاس معادن كمعادن الفضَّة والذَّهب، خيارهم في الجاهليَّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجنَّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))[٣].

قال ابن حجر: (قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت وإذا اختلفت تناكرت، ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب على ما جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجسام وكانت تلتقي فتتشاءم، فلما حلت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول فصار تعارفها وتناكرها على ما سبق من العهد المتقدم. وقال غيره: المراد أن الأرواح أول ما خلقت خلقت على قسمين، ومعنى تقابلها أن الأجساد التي فيها الأرواح إذا التقت في الدنيا ائتلفت أو اختلفت، على حسب ما خلقت عليه الأرواح في الدنيا إلى غير ذلك بالتعارف. قلت: ولا يعكر عليه أن بعض المتنافرين ربما ائتلفا لأنه محمول على مبدأ التلاقي فإنه يتعلق بأصل الخلقة بغير سبب، وأما في ثاني الحال فيكون مكتسبا لتجدد وصف

(١) رواه مسلم (١٨٥٥).

(٢) انظر: ((هذه أخلاقنا)) لمحمود الخزندار (ص ١٩٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٣٨).

يقتضي الألفة بعد النفرة، كإيمان الكافر وإحسان المسيء. وقوله: (جنود مجندة) أي أجناس مجنسة أو جموع مجمعة. قال ابن الجوزي ويستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك؛ ليسعى في إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه. وقال القرطبي: الأرواح وإن اتفقت في كونها أرواحًا لكنها تتمايز بأمور مختلفة تتنوع بها، فتتشاكل أشخاص النوع الواحد وتتناسب بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة، ولذلك نشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها وتنفر من مخالفها، ثم إنا نجد بعض أشخاص النوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر، وذلك بحسب الأمور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها)[١].

أقوال السَّلف والعلماء في الأُلْفَة:

- عن مجاهد قال: رأى ابن عبَّاس رجلًا فقال: (إنَّ هذا ليحبُّني. قالوا: وما علمك؟ قال: إنِّي لأحبُّه، والأرواح جنودٌ مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[٢].

- وعن الأوزاعيِّ قال: كتب إليَّ قتادة: إن يكن الدَّهر فرَّق بيننا فإنَّ أُلْفَة الله الَّذي ألَّف بين المسلمين قريب[٣].

- وقال يونس الصَّدفي: (ما رأيت أعقل مِن الشَّافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثمَّ افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثمَّ قال: يا أبا موسى، ألَا يستقيم أن

---

(١) ((فتح الباري)) (٦/٣٦٩).
(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٠٨).
(٣) ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/١٠١).

نكون إخوانًا وإن لم نتَّفق في مسألة)[١].

- وقال السُّلمي: (وأصل التَّآلف هو بغض الدُّنْيا والإعراض عنها، فهي التي توقع المخالفة بين الإخوان)[٢].

- وقال الماورديُّ: (الإنسان مقصود بالأذيَّة، محسود بالنِّعمة. فإذا لم يكن آلفًا مألوفًا تخطَّفته أيدي حاسديه، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تَصْفُ له مُدَّة. فإذا كان آلفًا مألوفًا انتصر بالأُلْفَة على أعاديه، وامتنع مِن حاسديه، فسَلِمت نعمته منهم، وصَفَت مُدَّتُه عنهم، وإن كان صفو الزَّمان عُسْرًا، وسِلمُه خَطَرًا)[٣].

- وقال الْغَزالِي (الأُلْفَة ثَمَرَة حُسْن الخُلُق، والتَّفرق ثَمَرَة سوء الخُلُق، فَحُسْن الخُلُق يُوجب التَّحبُّب والتَّآلف والتَّوافق، وسُوء الخُلُق يُثمر التَّباغض والتَّحاسد والتَّناكر)[٤].

- وقال أبو حاتم: (سبب ائتلاف النَّاس وافتراقهم بعد القضاء السَّابق هو: تعارف الرُّوحين وتناكر الرُّوحين، فإذا تعارف الرُّوحان وُجِدَت الأُلْفَة بين نفسيهما، وإذا تناكر الرُّوحان وُجِدَت الفُرْقَة بين جسميهما)[٥].

- وقال أيضًا: (إنَّ مِن النَّاس مَن إذا رآه المرء يُعْجَب به، فإذا ازداد به علمًا ازداد به عجبًا، ومنهم مَن يبغضه حين يراه، ثمَّ لا يزداد به علمًا إلَّا ازداد له

---

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٠/١٦).

(٢) ((آداب الصحبة)) (ص ٧٨).

(٣) ((أدب الدنيا والدين)) (ص ١٤٦).

(٤) ((إحياء علوم الدين)) (٢/١٥٧).

(٥) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٤٦).

مقتًا، فاتِّفاقهما يكون باتِّفاق الرُّوحين قديمًا)[(١)].

- وقال ابن تيمية: (إنَّ السَّلف كانوا يختلفون في المسائل الفرعيَّة، مع بقاء الأُلْفَة والعصمة وصلاح ذات البين)[(٢)].

- وقال الأبشيهي: (التَّآلف سبب القوَّة، والقوَّة سبب التَّقوى، والتَّقوى حصنٌ منيع وركن شديد، بها يُمْنَع الضَّيم، وتُنَال الرَّغائب، وتنجع المقاصد)[(٣)].

فوائد الأُلْفَة[(٤)]:

١- قيام الأُلْفَة بين المؤمنين مِن أسباب النَّصر والتَّمكين.

٢- الأُلْفَة تجمع شمل الأمَّة وتمنع ذلَّهم.

٣- الأُلْفَة سببٌ للاعتصام بالله وبحبله.

٤- الألفة من أسباب محبَّة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

٥- تُحقق التَّماسك الاجتماعي، وتُشيع روح المودَّة بين المسلمين.

٦- داعية إلى التَّناصر وسلامة المجتمع المسلم.

٧- توفِّر جوًّا اجتماعيًّا سليمًا لنمو الإنسان المسلم نموًّا سليمًا في إطار مبادئ الإسلام.

٨- داعية إلى التَّوحد الاجتماعي، ونبذ أسباب الفُرْقة والمعاداة.

٩- تُشيع التَّعاون بين المسلمين، وفي ذلك مدعاة لرضا الله تعالى ثمَّ رضا النَّاس.

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١١٠).
(٢) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/٩٢).
(٣) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ١٣٠).
(٤) الفوائد من رقم ٥ إلى ٩ من كتاب ((نضرة النعيم)) (٢/٥٠٦).

أسباب الأُلْفَة:

هناك أسبابٌ كثيرةٌ تؤدِّي إلى الأُلْفَة والمحبَّة، وتقوي الروابط والعلاقات بين أفراد المجتمع المسلم فمنها:

١- التَّعارف ومعاشرة النَّاس:

قال صلى الله عليه وسلم: ((الأرواح جنودٌ مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف))[١].

٢- التَّواضع:

إنَّ (خفض الجنَاح ولين الكَلِمَة وتَرْك الإغلاظ مِن أَسبَاب الأُلْفَة واجتماع الكَلِمَة وانتظام الأَمر ولهذا قيل: مَن لانت كلمته وجبت محبَّته وحَسُنَت أُحدُوثته، وظمئت الْقُلُوب إلى لقائه وتنافست في مودته)[٢].

قال ابن عثيمين: (وظيفة المسلم مع إخوانه، أن يكون هيِّنًا ليِّنًا بالقول وبالفعل؛ لأنَّ هذا ممَّا يوجب المودَّة والأُلْفَة بين النَّاس، وهذه الأُلْفَة والمودَّة أمرٌ مطلوبٌ للشَّرع، ولهذا نهى النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام عن كلِّ ما يوجب العداوة والبغضاء)[٣].

٣- القيام بحقوق المسلمين والالتزام بها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حق المسلم على المسلم خمسٌ: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس))[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨).

(٢) انظر: ((التيسير بشرح الجامع الصَّغير)) للمناوي (٤٣٤/١).

(٣) ((شرح رياض الصالحين)) (٥٤٤/٢).

(٤) رواه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢٦١٢).

(فهذه الحقوق التي بيَّنها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كلَّها إذا قام بها النَّاس بعضهم مع بعض، حَصل بذلك الأُلْفَة والمودَّة، وزال ما في القلوب والنُّفوس مِن الضَّغائن والأحقاد)[١].

ومن ذلك:

٤- إفشاء السَّلام:

قال صلى الله عليه وسلم: ((يا أيُّها النَّاس أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا باللَّيل والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام))[٢].

(قال الإمام الرَّازي: الحكمة في طلب السَّلام عند التَّلاقي والمكاتبة دون غيرهما: أنَّ تحيَّة السَّلام طُلِبت عند ما ذكر؛ لأنَّها أوَّل أسباب الأُلْفَة، والسَّلامة التي تضمنها السَّلام هي أقصى الأماني فتنبسط النَّفس -عند الاطِّلاع عليه- أيَّ بسطٍ، وتتفاءل به أحسن فأل)[٣].

٥- زيارة المسلم وعيادته إذا مرض:

فزيارة المسلم لأخيه المسلم تبعث على الحبِّ والإخاء، ولا سيَّما عند المرض، مع ما أعده الله من الأجر والثواب له قال صلى الله عليه وسلم: ((مَن عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوَّأت مِن الجنَّة منزلًا))[٤].

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/٦٠٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤) مِن حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وقال الحاكم (٣/١٤): صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (٤/٤٠).

(٣) ((فيض القدير)) للمناوي (١/٤٣٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٨)، وابن ماجه (١٤٤٣) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: غريب، وقال الحافظ ابن حجر في ((فتح الباري)) (١٠/٥١٥): له شاهد بإسناد =

٦- الكلام اللَّين:

فالكلام اللَّين والطَّيب مِن الأسباب التي تؤلِّف بين القلوب، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

٧- التَّعفُّف عن سؤال النَّاس:

قال صلى الله عليه وسلم: ((وازهد فيما في أيدي النَّاس يحبَّك النَّاس))[١].

٨- السَّعي للإصلاح بين النَّاس:

قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

٩- الاهتمام بأمور المسلمين والإحساس بقضاياهم:

قال صلى الله عليه وسلم: ((المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسَّهر))[٢].

١٠- التَّهادي:

لا شك أن تقديم الهديَّة يزيد مِن الأُلْفَة والمحبَّة والتَّقارب بين المهدي والمُهْدَى إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((تهادوا تحابُّوا))[٣].

= جيد، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦٣٨٧).

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٣٤٨/٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٩٣/٦) مِن حديث سهل بن سعد السَّاعدي رضي الله عنه. وضعَّف إسناده البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٢١٠/٤)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٩٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٥٩٤)، وأبو يعلى (٩/١١) (٦١٤٨)، والبيهقي (١٦٩/٦) (١١٧٢٦). قال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٥٣/٢): إسناده جيد. وحسَّن إسناده ابن حجر في ((التلخيص الحبير)) (١٠٤٧/٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)).

١١ – حسن الخلق:

قال الغزالي: (اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر ومهما كان المثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة)(١).

وقد أرجع الماورديُّ أسباب الأُلْفَة إلى خمسة أسباب رئيسة: وهي: الدِّين والنَّسب والمصاهرة والمودَّة والبرُّ، فقال:

١- (فأمَّا الدِّين: وهو الأوَّل مِن أسباب الأُلْفَة؛ فلأنَّه يبعث على التَّناصر، ويمنع مَن التَّقاطع والتَّدابر. وبمثل ذلك وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، فروى سفيان عن الزُّهري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث))(٢).

وهذا وإن كان اجتماعهم في الدِّين يقتضيه فهو على وجه التَّحذير مِن تذكُّر تراث الجاهليَّة وإحَن الضَّلالة. فقد بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشدُّ تقاطعًا وتعاديًا، وأكثر اختلافًا وتماديًا، حتى إنَّ بني الأب الواحد يتفرَّقون أحزابًا، فتثير بينهم بالتَّحزب والافتراق أحقاد الأعداء، وإحَن البعداء...

٢- وأما النَّسب: وهو الثَّاني مِن أسباب الأُلْفَة؛ فلأن تعاطف الأرحام حميَّة القرابة يبعثان على التَّناصر والأُلْفَة، ويمنعان مِن التَّخاذل والفرقة، أنفة مِن

(١) ((إحياء علوم الدين)) (٢/١٥٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٨) بلفظ آخر.

استعلاء الأباعد على الأقارب، وتوقيًا مِن تسلُّط الغرباء الأجانب. وقد رُوِي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((إنَّ الرَّحم إذا تماسَّت تعاطفت))[1].

٣- وأمَّا المصاهرة: وهي الثَّالث مِن أسباب الأُلْفَة، فلأنَّها استحداث مواصلة، وتمازج مناسبة، صدرا عن رغبةٍ واختيار، وانعقدا على خيرٍ وإيثار، فاجتمع فيها أسباب الأُلْفَة ومواد المظاهرة. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الرُّوم: ٢١] يعني بالمودَّة المحبَّة، وبالرَّحمة الحنو والشَّفقة، وهما مِن أوكد أسباب الأُلْفَة...

٤- وأمَّا المؤاخاة بالمودَّة، وهي الرَّابع مِن أسباب الأُلْفَة؛ لأنَّها تكسب بصادق الميل إخلاصًا ومصافاة، ويحدث بخلوص المصافاة وفاءً ومحاماةً. وهذا أعلى مراتب الأُلْفَة، ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه؛ لتزيد ألفتهم، ويقوي تضافرهم وتناصرهم ...

٥- وأمَّا البرُّ، وهو الخامس مِن أسباب الأُلْفَة، فلأنَّه يوصِّل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبَّة وانعطافًا. ولذلك ندب الله تعالى إلى التَّعاون به، وقرنه بالتَّقوى له، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: ٢].

لأنَّ في التَّقوى رضى الله تعالى، وفي البرِّ رضى النَّاس. ومَن جَمَع بين رضى الله تعالى ورضى النَّاس فقد تمَّت سعادته، وعمَّت نعمته)[2].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) للماوردي (ص ١٤٩).

(٢) ((المصدر السابق)) (١٤٧-١٦١).

الأُلْفَة في واحة الشِّعر:

قال عليٌّ رضي الله عنه:

عليك بإخوانِ الصفاءِ فإنَّهم عمادٌ إذا استنجدتَهم وظهورُ

وإنَّ قليلًا ألفُ خلٍّ وصاحبٍ وإنَّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ[1]

قال أحمد بن محمَّد بن بكر الأبناوي:

إنَّ القلوبَ لأجنادٌ مجنَّدةٌ للهِ في الأرضِ بالأهواءِ تعترفُ

فما تعارفَ منها فهو مؤتلفٌ وما تناكرَ منها فهو مختلفُ[2]

وقال منصور بن محمَّد الكريزي:

فما تبصرُ العينانِ والقلبُ آلفٌ ولا القلبُ والعينان منطبقان

ولكن هما روحان تعرضُ ذي لذى فيعرفُ هذا ذي فيلتقيان[3]

وقال: محمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

تعارفُ أرواحُ الرِّجال إذا التقوا فمنهم عدوٌّ يُتَّقى وخليلُ

كذاك أمورُ النَّاسِ والنَّاسُ منهم خفيفٌ إذا صاحبته وثقيلُ[4]

وقال المنتصر بن بلال الأنصاري:

يزينُ الفتى في قومِه ويشينُه وفي غيرِهم أخدانُه ومداخلُه

لكلِّ امرئٍ شكلٌ مِن النَّاسِ مثلُه وكلُّ امرئٍ يهوى إلى مَن يشاكلُه[5]

(١) ((المستطرف)) للأبشيهي (ص ١٣٠).

(٢) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٠٨).

(٣) ((المصدر السابق)).

(٤) ((المصدر السابق)).

(٥) ((المصدر السابق)) (ص ١٠٩).

وقال محمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إن كنت حُلْتَ، وبي استبدلت مُطَّرحًا ... وُدًّا فلم تأتِ مكروهًا ولا بدعا

فكلُّ طيرٍ إلى الأشكالِ موقعُها ... والفرعُ يجري إلى الأعراقِ منتزعا[1]



(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ١٠٩).

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة